مدار شمس

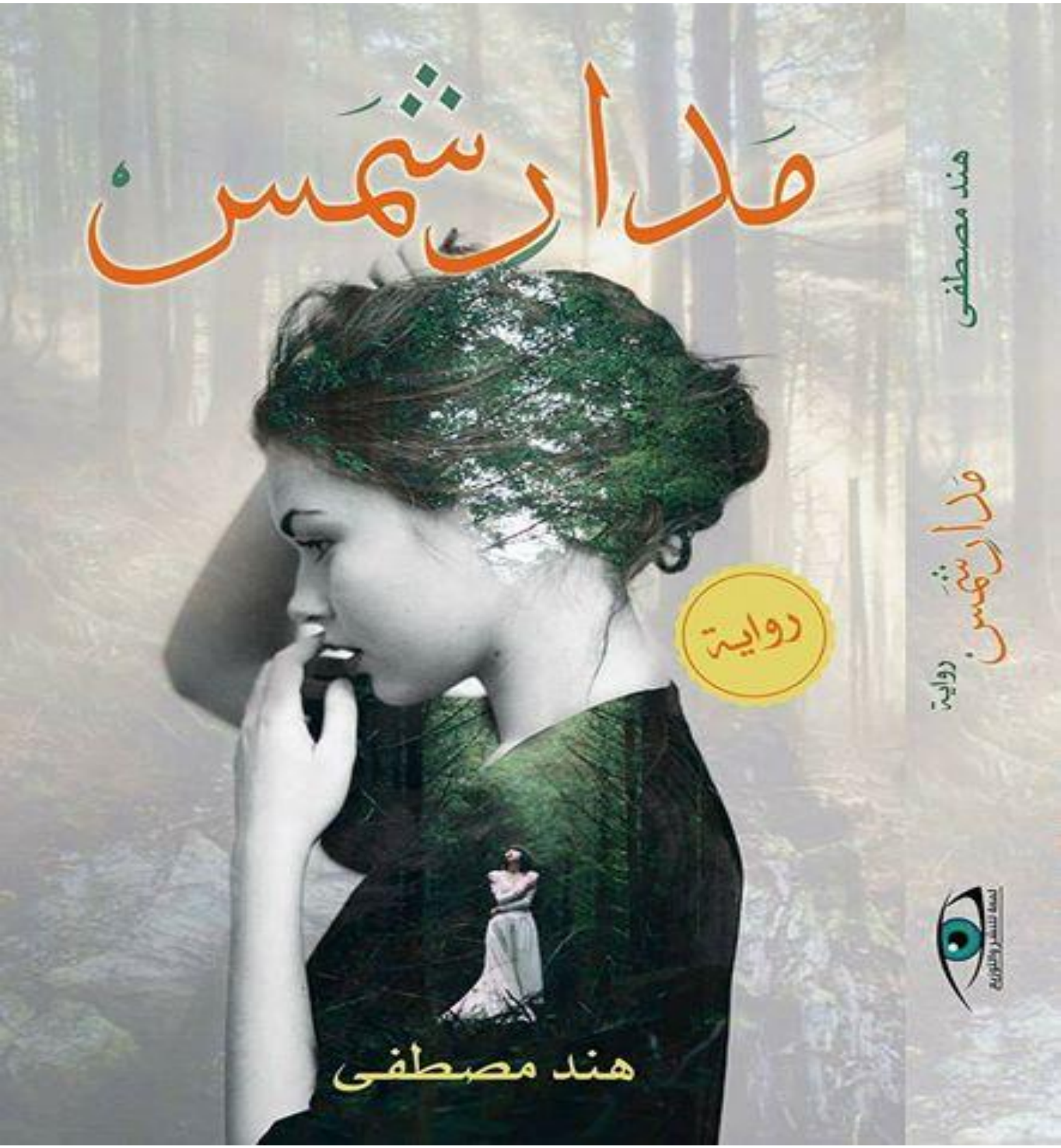

رواية

هند مصطفى

مدار شمس رواية
هند مصطفى

رواية

صدأ الشمس

هند مصطفى

رواية
مدار الشمس

@£"‰..•®xŸÁ

تصميم الغلاف

هناء محمود

مصحح لغوي

الإخراج الفني

محمد هلال مجاور

رقم الإيداع

2017\14278

المدير العام: محمد البديوي

جميع الحقوق محفوظة© دار لمحة للنشر
أي أقتباس او تقليد أو طبع، أو إعادة نشر
دون موافقة قانونية مكتوبة يعرض صاحبة
للمساءلة القانونية، والأراء والمادة الواردة،
وحقوق الملكية الفكرية بالكتاب خاصة
بالمؤلف فقط لاغير

العنوان:
١٧ شارع عبدالمحسن خطاب- الجمعية
الزراعية - بشتيل
للتواصل: ٠١٢٨٢٦٣٨٥٥٢

إلى

كل مقبلٍ راحل

إلى

كل قيدٍ محرر

إلى

الحياة

أتخشين مني ....أتخشين حبي ..؟!
وكيف أخشى ما لا أراه؟.....
وماذا أخاف؟ ....
أأخشى حروفًا ....
تقطف ورودًا في كل اتجاه
تزهر قلوبًا وتطفئ شموعًا....
بغير انتباه
أأخشاك أنت؟...
رجلًا لا ينوي رعى هواه
يدير قلبه كيف الهواه
أأخشاك وأنت لست ملكي....لست مني....
ولا تهديني أدنى انتباه.....
تأتيني يومًا حبًّا وعشقًا.... فتأتي معك
كل الحياة.....
تغيب يومًا ومن بعد يومٍ....
فترحل عني روح الفتاه....
تميل عني... يومًا وتأتي...
أنوي لحاقك... فتحتار نفسي بأي اتجاه
سراب في كفي , ظمأ في حلقي...

تقتل حديثي فوق الشفاه...
أنا لا أخافك....
كيف أخاف ما لا أراه.....
أين غرامك؟....وما منتهاه؟....
أين دليلك؟ ...وما فحواه؟.....
أين مصيري؟...وطعم الحياة؟
كيف أصدق.....
وكيف أفرط في دفء قلبي ومالي سواه؟
..... أنا لا أخافك.....
....أنا لا أهابك....
ولكني أعرف كيف رحيلك
وكيف يبدل رجلٌ هواه.....

مدار شمس
هند مصطفى

ومن منا لا يحتاج إلى الحديث، إلى الفضفضة وإخراج صراعات نفسه وإن كانت كلها تتجسد في كلماتٍ لا ترابط كامل بينهم ولا معني لها صحيح، ببساطة إن وجدت من تتحدث إليه فهو لن يفهمك من اضطراب أفكارك ولا دواء يوقف المشاعر أو يمحو الأفكار، لن يفهمك إلا نفسك وقلبك.....

هذا ما دار ببال (هنا).... وهي ترقد وحيدة بحجرتها...

علي سريرها الصغير الذي عاصر كل سنوات حياتها، يبدو أنها مضطرة لتوديعه اليوم، ومكتبتها الصغيرة التي امتلأت بكتبٍ وروايات تحمل كثيرًا من أحلامها وخيالاتها وذكرياتها بين طيات أوراقها، تنظر إلى هذا الفستان الأبيض المعلق في دولابها الصغير، دولابها الصغير لا يتحمل كل تفاصيله الهائلة ، .....

ورغم أنهم يحاولون التقليل من الضوضاء لتنعم بالراحة لمدةٍ أطول، لكنهم لم يفلحوا، هي تسمع أصواتهم الهامسة بالخارج، وفي كل الأحوال هي لم تستطع الحصول على الراحة والهدوء والسكينة في هذا اليوم.....

هذا اليوم الذي يفترض أن تشعر فيه ببعض السعادة، الأفكار تعصف بعقلها بقوةٍ من كل جانب، أفكار أرقت نومها وزرعت الشوك في سريرها تتقلب يمينًا ويسارًا دون أن تجد الراحة، أو تستطيع النوم، تفترسها الكثير من الذكريات، ذكريات مشاعرها التي واجهت الحياة معها كل يوم.

يمر عقلها علي أيامها السابقة كمن يودع حبيب ...

(هاهو اليوم الذي أتخلى فيه عني.....

حتى أنا خذلتني.....
خذلت مشاعري التي تشابهت بغزل البنات في لونها الأبيض ولفلفاتها ، تبدو معقدة رغم أنها بسيطة وهشة في نفس الوقت، يفترض بي اليوم السعادة، لكني لست سعيدة كعادة البنات في هذا اليوم،
يوم زفافي ...
هذا يومي ....
يومي أنا .....
أنا (هنا) اسم على مسمى كما يحب أن يقول أبي، أسماني هنا تيمنًا بأني أصيب الهناء وأصيب كل من يراني به قد يكون هذا الفضل لملامحي التلقائية ووجهي الطفولي، وبشاشتي مع الناس، كما ساعدتني قصر قامتي أن أبدو كطفلةٍ أصغر من عمري بسنوات، لكن ها هوالهناء يتخلى عنى اليوم أبي....
لا أعلم كيف ولِمَ .....
لكن خاصمتني البهجة والهناء، و بدأ أرقى في أهم يوم أحتاج فيه إلى الهدوء و الاسترخاء، الحيرة تقتلني ما هو سر سعادة البنات في هذا اليوم، أنا عن نفسي يدور رأسي بكل اتجاه، في حين يعتقد الجميع أني قوية، أنا فقط بارعة في إخفاء ضعفي، بارعة إذ استطعت رسم تلك الصورة الوهمية عني وعن سعادتي وأنا عاجزة عن وضع خطوطًا محددة فأعلم ما اختياراتي، أنا أضعف كثيرًا مما اعتقد الجميع، أنا أسير فقط كما تسير القافلة بلا وعي ولا فهم....
أين هي القوة في فتاةٍ لم تستطع مواجهة المجتمع وخافت من لومه وكلامه، أين هي القوة وأنا أعيش أحداث تتوالى حولي ولا أشعر أنها تخصني، أنا كمن يعيش داخل فيلمًا سينمائيًّا الآن ، ولا أعلم كيف أخرج منه، لم يكن طموحي يومًا أن أكون حبيسة منزل رجلٍ ولا

أقصى طموحي أن تطويني جدران مطبخ كل يوم لإعداد وجبات طعام لشخص غريب عني، وها أنا أرضخ لذلك لمجرد الخوف أن أقع تحت طائلة انتقادات مجتمعية بالية...
كلما نظرت لأمي أتعجب ما نوع المرأة التي تقبل كل هذا الهوان ومن أجل من؟؟؟
كيف ضحت بحريتها وبهاءها كي تعيش هذه الحياة الضحلة ، استنفذنا طاقتها وصحتها ولا أدري إن كانت حقًّا سعيدة أم هي تحاول أن تبدو على ما يرام، قضت معظم حياتها بين جدران هذا البيت بلا مقابل إلا مزيد من الضغط والتعب اليومي الذي لا ينتهي، وأنا كيف لي أن أعيد الكرة، كيف أعيش مثل هذه الحياة، أين لي بالطاقة لأتحمل هذا النوع من القهر.
اليوم أتزوج فقط لأنني لم أقو على مجابهة ذلك المصير لبنتٍ عانس ولم أكن بالشجاعة الكافية فيصبح مصيري كمصير أختي الحبيبة (جميلة) هاهي جميلتنا تواجه العالم كل يوم بنظراته وأحكامه ونواقضه عليها، تلتقي عيون الناس كمجرمٍ يتخفى من أعين الشرطة.

كلما نظرت لجميلة وما تتحمله أجدني لا أقوى ولا أحب أن أرى نفسي في هذا الموقف، لم أرها أبدًا مخطئة لتتحمل كل هذا الغمز واللمز عليها، يشعرني وضعها بالنقم الشديد لوجودي في هذا المجتمع ، مجتمع أدمن وأد فتياته منذ الجاهلية الأولى.....
أنظر حولي وأسمع هذه العبارات التي يملأون بها عقول البنات وأتعجب وحتى على منتديات الإنترنت أصبح شغل العالم الشاغل هو" كيف تجعلين زوجك يحبك ؟".....
"كيف تعيدين زوجك إليك بعد خيانته ؟ "....

هذه الأسئلة أرخص مما تستحق أن تجد لها إجابة، لماذا لا يتركون الأبواب مفتوحة؛ من أراد الرحيل فليرحل، لماذا أصبحت النساء تحمل هذه الهموم الثقيلة فوق رؤوسهن، أمر مدمي عقيم، حين يحثونها على التلون والتشكل، وممارسة حيل بهلوان لتسير على الحبل، وترتدي كل أقنعة الحب المختلفة، وتتغير من أجله لأم وصديقة وفتاة ليل وقديسة، لترضيه فيحبها....
يثقلون كثيرًا على الفتيات والنساء، فلا إنسان استطاع أن يقوم بهذه الأدوار بمنتهى البراعة ، دون أن يخطأ مرة أو يتعثر بطريقه، بل إن القيام بكل هذه الأمورهي درب من الاستحالة في الأساس ....
أنا لا أريد أن أقوم بكل هذا ليحبني إنسان.....
أريد أن يحبني كما أنا، يحبني لأنني أنا، لست لأنني ما يريده، أريد ألا أخسر ذاتي في هذه المعركة غير المنصفة ضد نفسي، هذا إجرام ضد ذاتي وأنا أتمنى حباً غير مشروط ولا مسبب، حباً بلا قيود، حباً بين قطبي الإنصات والإنصاف....

سمعت خبطات سريعة لطيفة على الباب، فقالت :
_من؟
أتاها صوت هاديء يقول :
_أنا شمس.
فرحت (هنا) هاهي صاحبة الحضن الدافيء والقلب الكبير، ردت عليها قائلة :..
_أدخلي حبيبتي...
(شمس) رغم أنها الأصغر إلا أنها تزوجت قبلها بسنواتٍ ، حتى صارت أمًّا و(هنا) لم تتزوج بعد، (شمس) هي القلب الكبير والمنطق والقوة والإرادة، (شمس) هي الوقار، صاحبة الجمال الهادئ و

العيون الواسعة البنية والشعر البني القصير المتموج حول وجهها الذي يضيء مثل الشمس، امرأة كما ينص عليه العهد، تقدس الزواج وتعتبرها رسالة المرأة الأولى في الحياة، أن يكون لها بيت دافئ وأطفال يلقبونها(ماما) ...
رغم أنها الصغرى فقد مثلت للجميع أمًّا أخرى بالفطرة ...
تغمرهم بعطفها وتحبهم ، قوية المشاعر شديدة الإحساس، رومانسية ورقيقة، لكن تغيرت كثيرًا شمس،،،
ما عادت تدافع عن نظريتها المقدسة في الزواج السعيد أمام (هنا) ، توقفت عن إقناعها أنها تفعل الصواب، وصوت حال (هنا) يخبرها "أرجوك، لا تتخاذلي هكذا أمامي...."
تنزوي ولا أحد يعلم كيف ولا متى ولا أين انطفأت شمس؟! كيف غابت شمسنا الحبيبة؟
مرت عدة شهور وهي متغيرة؛ تحاول (هنا) سحب الحديث منها فلا تتحدث ، تتعمد الهرب من عيون أخواتها، ومن أي حديث آخر.
اقتربت (شمس) من أختها وهي تبتسم وقالت :
هنا الجميلة..... حبيبتى ... ملأ الله حياتك كلها بالهنا.... ألف مبروك لك يومك وحياتك....
قبلتها بمنتهى الحب والحنان، محاولة رسم السعادة ، لكن (هنا) تشعر بها، تعلم أنها مخذولة بقوة ولا تدري ما السبب، تشعر بها وتتمنى لو يمكنها تقديم مساعدة، لكن كيف تقدم المساعدة وهي صامتة لا تتحدث
ردت عليها(هنا) قائلة :..
-الله يبارك فيك حبيبتي
ثم سألتها(شمس) :
-ألم تأتِ (نور) بعد؟.....
أصابت الصدمة وجه (هنا) فردت بدهشة قائلة :

-نور أختنا؟!
-نعم وهل نملك (نور) غيرها , أوحشتني.
هنا أيقنت (هنا) أنه نعم تغيرت (شمس)، تسأل عن (نور) باهتمام، تلك التي لطالما طلبوا منها مسامحتها والحديث معها مرة أخرى، تقول أنها توحشتها، تسأل عنها أخيرًا ، ظلت (هنا) تحدق بأختها وهي تتساءل داخلها ما وراءك وما حدث لك، لكي تغيري موقفك هذا فجأة الآن ؟!

.....
لم تستطع مقاومة نفسها، سألتها:
-شمس... أتمنى أن تتحدثي معي قليلًا...
-عن ماذا حبيبتي؟....
-أشعر أني لست بخير وأنت كذلك لست بخير أيضاً .
ضحكت (شمس) وقالت:
-لعلها أعراض ما قبل الزفاف.....الخوف....
لكن (هنا) لم تستطع مبادلتها الضحك بل ردت بصوت حزين :
-لعله الندم والتردد (شمس) ....
ثم أمعنت النظر إلى هذا الجزء الظاهر من فستان زفافها بالدولاب الصغير وأكملت:
_لا يمكنني التأقلم مثلكم.... زوجة تعني.... طاعة وخنوع واستسلام وخضوع وقلة حيلة وذل ومهانة، لا أحب هذه الحياة الزائفة ؟؟
ما هو شعوركن بعد الدفن؟.....

ظهر الألم جليًّا على وجه (شمس)، لم تعلم (هنا) هل هذا الألم البادي لأنها أصابت حقيقة تتألم منها، أم لأنها شعرت بالإهانة من هذا التعبير

الصادم لها، وقبل أن تتمكن (هنا) من محاولة الاعتذار، ابتسمت (شمس) وبادرت قائلة :
ـ مضطرة أن أذهب الآن لأرى الأولاد ولكني قريبة، متى أردت مني شيئًا حبيبتي، هذا ليس يومًا لنتحدث عن أي شيء آخر غيرك أنت .....
كالعادة...
هربت منها(شمس) ....
كالعادة.....
هربت ولم تتحدث.

.....

خرجت (شمس) وأغلقت الباب خلفها وانفصلت ابتسامتها المصطنعة عنها تماماً حين غاب عنها وجه (هنا)...
(ليتك لا تتذوقي شعور الدفن هذا يا حبيبتي) هذا ما قالته (شمس) لنفسها وهي تفكر بالأمر...
كانت شمس تسير بخطواتٍ بطيئة متثاقلة ومازالت سارحة بأفكارها، تقول في نفسها ليت حظك أفضل منا (هنا)، يدور ببالها حالها وحال(نور) كم قست عليهما الحياة وأوجعتهما رغمًا عنهما، كان أقصى طموح لديهما أن يعيشا فقط ،هل حق الحياة ما عاد مسموح، ليت(نور) تسامحها الآن عن ما بدر منها في حقها.
ظلت أسيرة أفكارها وهي تقول لحالها..

(نعم لكل إنسان هذه الرغبة الداخلية العميقة في الحب، لأن الحب يعطيه قيمته الحقيقية، يشبع احتياجه الأساسي في أن يكون إنسان، في أن يعري مشاعره وكيانه الحقيقي في حضرة محبوب يتشاطر معه إحساسه ومشاعره بكل تفهم ، بلا طعن ولا أحكام، نحن نبحث عن الحب؛ لأننا نبحث عن علاقة حقيقية فيها تفهم وتقدير وإحساس وقرب واهتمام، بلا شروط كثيرة، بلا تنازل مبالغ فيه ، بلا تغييرات جذرية في كياناتنا.....
سامحيني (نور) لم أكن أعلم حجم مرارتك ولا ماهية مشاعرك، ليت الأيام عادت فاحتضنك وأحميك من غدرها، أحميك من هوان نفسك وثقل مشاعرك ونغصة روحك، أحميك من الشتات الذي تذوقته؛

أسندك ولا أخذلك أنا الأخرى، قد أذاقني الله نفس كأسك وكأنه تكفير عن خذلاني لك، سامحيني حبيبتي)
(شمس) ... منذ صغرها مثالًا يحتذى به في الأخلاق والعقل والأدب، الجيران يشيدون بأخلاق شمس ويقولوا لبناتهن؛ هل ترون كيف تمشي شمس مهرولة سريعة تمشي كولد !!!!!!
هل ترون كيف تتحدث شمس؟ ....
هل ترون كيف تتصرف شمس؟ ...
منذ نعومة أظافرها لا تضحك كثيرًا ولا يعلو صوتها كثيرًا ولا تجادل.
وقالت لها أمها :
(كوني صبورة تنالي ما تحبي..... لا تستسلمي لمشاعرك) هل خدعتها، أم أنها لا تدري شيئًا عن هذه الحياة، أو لعل الحياة تغيرت، لكن فى جميع الأحوال صدقت (شمس) أن كل بنت تقع في الحب، تقع معها أخلاقها، كل من أحبت هي فتاة سيئة ، لابد أن تقاوم الحب إذا أصابها ...
أخبرتها أن ضعف المشاعر والإحساس يعني ضعف الأخلاق، لذلك في المدرسة كانت مثار إعجاب كل من يراها ؛ ليس لجمالها ولا لجاذبيتها، وكم كانت تتوق مثل كل فتاة أن يكونا سببًا لإعجاب الناس بها ، ولكن كان الإعجاب بجديتها وصلابتها، أشبه بالرجال في حكمتها وعقلها لأنها تبتعد عن كل ما أسموه تفاهات البنات، هي تميل للجانب الذكوري ليس لأنها معجبة به لكن لكي لا يفضحها ضعف جانبها الأنثوي أمام نسمة افتنان عابرة ، تلك الأنثى داخلها ، فريسة ضعيفة تخشى هربها.....
لذلك كانت الأولى في كل شيء.....

ولا تدري أي سباقٍ هذا الذي خاضته مع نفسها، لِمَ كان دائمًا يجب أن تكون الأولى في كل شيء، ماذا فادها هذا الاستهلاك العقيم لحياتها؟! فلم تستفد منه إلا فراغ يتزايد داخلها بلا رحمة.
مسكينة هي تلك الفتاة الحبيسة داخلها كانت تتغذى على حكايات زميلاتها في المدرسة على مشاعرهن وكلامهن عن الحب ومغامراتهن ، تلك المغامرات التي لطالما عاشتها فقط في سطور الروايات ، فتاة حبيسة تود كثيرًا لو ارتوت، لكن (شمس) أذاقتها المرار وطول العطش والصبر كما أخبرتها أمها .....
ومثلها كان أملها الوحيد؛ بيت زوجها، تحمل داخلها طاقة تود لو تنفجر وتفيض وتعطف علي حبيبيًا لها، تتوق لأن تكون أمًّا لأطفال الرجل الذي تحب، وكانت فرصتها الوحيدة في الحب هو زوج لها ،وبالتأكيد من مثلها تتزوج زواج صالونات، عقد بين العائلات، وسط الإطار الاجتماعي الذي تؤمن به ، داخل هالة الاحترام التي تحب خلقها لنفسها، بكامل كبريائها وكرامتها، وكلها ثقة في حياةٍ مملوءة حبًّا ونعيمًا و اشتياق لجنة الزوجية الموعودة ....

_(شمس)... يا شمسي أنا.
أخرجها الصوت من شتات أفكارها، صوت أبيها كم تحبه، الرجل الوحيد الذي أحبها بلا مقابل ، الشخص الوحيد الذي مازلت تؤمن به.
ردت بحماس :
_نعم بابا.
_اذهبي وساعدي أمك تحتاجك وأنا سأبقى مع الأولاد.
_ حاضر.... سأذهب إليها.....
في طريقها إلى أمها مرت بزوجها جالسًا يقرأ جريدة ويدخن سيجارة، تحمل ملامحه كثيرا من اللا مبالاة، كأن يديه التي تمسكان تلك

الجريدة غير ملطختان بنزيف روحها الداخلي ، كأنه ليس سبباً لكل تلك الحرائق التي تشتعل داخلها، نظرة واحدة تلقيها إليه كل مرة كفيلة بأن تفتح كل جروحها القديمة ويضاعف نزيفها ، وأن تذكرها أنها فقدت عفة روحها وبراءة قلبها بسببه هو ...
زوجي العزيز.....
يوم جئتني تطلب يدي كانت أول طعناتك أن أخبرتني أني اختيارك لسيرتي الطيبة وسمعتي الموثوقالموثوقة، وإنه لشيء طيب أن تختارني لأخلاقي, لأدبي, لتميزي ، لكن ليتك بالمقابل اخترتني أيضاً لأني أعجبك ،لأني جميلة، تجدني جذابة ومثيرة، كنت أتمنى أن تخبرني بأنك تشعر أني الحب الذي لطالما انتظرته، كنت أتمنى أن أكون غايتك في الحياة....
لماذا لم تشعرني أنى إنسانة؟....
لماذا لم تشعرني أنك ترى أمامك أنثى؟...
لماذا لم ترني؟.... لم تشعر بي؟ ....
لماذا كان يجب عليك أن تشعرني أنى بضاعة جيدة ؟ ...
نوع جيد يستحق أن تتنازل وتختاره للحياة، أشعرتني أنك تختار حبة فاكهة من سوق الخضار؛ أهم ما تريده ألا تكون ملموسة ولا معطوبة ولا فاسدة، أن تكون جميلة المنظر في طبق الفاكهة خاصتك ، أنت لا تريد أكلها فأنت مشبع ، لكن تريد امتلاكها لأنها فرصة لا تتكرر كثيرًا...
تحفتك الجميلة تشكرك...
أفسدت حياتها.....
من أول يوم زواج وأنت تتراجع عني وأنا احتفظ بهالة احترامي كاملة؛ لم أستطع أو لم تستطع أنت كشف ستر مشاعري، ورفع حجاب كان يفصل نفسي عنك، لم تهتم بأن تصل إلى، أن أضع بصمة في حياتك

وتضع بصمة داخل قلبي، أوتدري كنت أملك إحساسًا لم تعرفه ولم تره أنت يومًا، كانت داخلي أنثى كاملة كامنة تخجل وتخاف من الاقتراب ، لا تعرف كيف تقترب وأنت دائمًا بعيدًا عني جدًّا لا تهتم بوجودي قربك ، حتى في أقرب لحظاتنا حميمية ، أنت بلا إحساس ،تقبلني مجاملة بلا اشتهاء وتحضنني ببرود بلا رغبة ولا تقبل عليّ إقبال عاشقٍ أبدًا ، أنت لم تحاول الدخول إلى نفسي مرة،هل تعلم ليس كل من تتزوج تفقد عذريتها، أو عذرية مشاعرها،فأنا الفتاة الحبيسة داخلي، بكر لم تمسسها مرة أو تصل إليها، والأيام تمر وعلاقتنا باردة رتيبة لا يشوبها ذرة إحساس، وأنت لا تتغير، جامد بارد تعيش كأنك تعيش وحدك.
كيف كل هذا الجمود في بشر..
كيف كل هذا البرود في بشر..
كيف استطعت بكل براعةٍ أن تظل بعيدًا جدًّا هناك ،لماذا كنت دائمًا وحدي حتى وأنت تجلس جواري ؟
مرت حياتنا وجاء الأبناء وأنا أحاول نزع ستار أنوثتي فتخذلني أنت قبل أن تخذلني قواي، لا أدري أكنت لا أستطيع أم لا أريد، هل تعلم ما كنت أريده حقًّا، كنت أحتاج أن تقتحمني أنت وتصر على احتلالي و المكوث في أرضى، كنت أتمنى أن أرى اصرارك وتمسكك بي مرة.
كنت أرض خصبة، جنة تحتاج من يسكنها ويعمرها ويقطف ثمارها ،لكنك لا تقترب لتذوق هذه الثمرة ، يبدو أن آدم لم تغره إلا الثمرة المحرمة منذ بداية التاريخ، أنت دائمًا هناك مشغولًا بعالمك ، لا تريد أن تعلم أن لدى عالم يحتاج من يسكنه.....
أو لعلك لم تكن مهتم بسكنه....
مرت الأيام ....

وأنا أقوم بكل واجباتك وأعلم أنى أصبحت جزءًا لا يتجزأ من حياتك، أعلم أنك تعتمد على وجودي ولا غنى عني، قد أكون أمك ، أختك صديقتك ....
قد أكون أم أبنائك، أنا كنت كل شيء في حياتك، إلا ما تمنيته دومًا، أن أكون عشيقتك ، أضعفني طول جفائك ورحيلك ونفدت عزيمتي في هذه الغربة وحدي..
أين كنت مني؟! أين كنت من نفسي؟! لم الرحيل طويلًا؟!...
ظل هذا دائمًا سؤالاً يدور في بالي، يقتحمني ويحيرني.
حتى ذلك اليوم.....
الذى لم أنساه عمري...

.....
_(شمس).....
مرة أخرى صوت ينادي ويخرجها من عالمها، نظرت إلى زوجها الذي ينادى فقال :
- تقفين مشغولة البال يا (شمس) .....
تمتمت بلا قوى ....
- لا... أبدًا.
فعاد يسأل :
- هلا أتيتِ معي لأشتري الكرافت؟....
ابتسمت ابتسامة باهتة وهي تعلم أن هذا حدود دورها في حياته
-حاضر... أمهلني لحظات؛ أمي تحتاجني وسأعود لك.....

دخلت (شمس) على أمها المسكينة وحدها بالمطبخ مشغولة في إعداد العديد من أصناف الطعام ، فقالت لها :
_ما عاد سنك يتحمل كل هذا ماما، ما تعديه يكفي لإطعام قبيلة وليس وجبة لشخصين.
قهقهت أمها بسعادة وقالت :
_اخرسي يا بنت... أنا أعمل بطاقةٍ أكثر منكن أنتن الأربعة.
تظهر عليها فرحة جلية، ها هي تفرح بابنتها ، تكمل رسالتها وترسلها إلى بيت الزوجية، لم ترد كسر فرحتها أو فرحة أي أحد منهم، لذلك صمتت واكتفت بكتم أنينها داخلها وهي تمثل دور السعادة وتقول لها...
_حسنًا.... أعطيني فرصة لأتعلم منك يا جميل.....
.....
عمل روتيني في المطبخ، هو أسهل طريق لتلك الأفكار، لأن تعود بقوة ، مع كل صحن تغسله تقول لنفسها ليتك تعلمي يا أمي، كم انكسرت..
...تألمت ...
توجعت...
ذبلت.....
وحاولت أن أجمع شتات نفسي وبقايا كرامتي لأحافظ على بيتي، لأحتضن أولادي، عشت مستسلمة ولكني لست راضية ومخذولة من محاولاتي الدائمة أن أقترب فلا يستقبلني ؛ ومحاولاتي أن يكون كل ما في حياتهم مثالي، لكن لا شيء مثالي في هذه الحياة، بل فقط علقت في الوسط المميت ما بين محاولاتي للمثالية، وبين انتهاك كل حقوقي في أن أحظى بالراحة...
علي الإنسانية....انتهاك كل حقوقي لأن أكون إنسان.....

ثم جاء ذلك اليوم...
مازلت أذكر جيدا ذلك اليوم...
أذكر انتفاضة قلبي وارتعاش جسدي وبرودة أقدامي وأنا اقرأ رسائله إليها، كنت أسقط بقوةٍ ولا شيء حولي لأتمسك به، صورها المبتذلة والكلام المعسول المتبادل بينهما، كدت أصدق أنه لا يستطيع الحديث ؛ من أين فاضت تلك المشاعر وكيف غابت عني؟!وكيف حدث كل هذا وأين كنت أنا؟!...
نعم كنت غارقة في هموم بيته وأولاده، كنت أنظم له الحياة كي يجد الوقت ليستمتع ويحب ويخون.
أنت الذي جعلتني أصدق أن البرود جزء من شخصيتك، أن الجفاء أصلك، وأن الصمت موطنك....
تفيض حبًّا وحناناً ولطفاً لعاهرة!!....
هل تتحملك هذه العاهرة بصوتك العالي وغضبك وأوامرك؟!
هل تتحمل تلك العيوب التي عاصرتها معك وتحملتها فيك.
بعد كل سنين الجفاف هذه وجدتك تمتلك ما يرويني، لكنه لم يكن لي، أنا كنت ربة البيت ، لم أرقَ لمرتبة حبيبةٍ أو عشيقة ...
أشكرك عزيزي؛ أفسدت أجمل سنيني....
رعونتي وشبابي...
خطفت مني صبايا كخادمة.....
أكنت تريد التواصل والحديث والحب والفضفضة ؟! ليتك حاولت اللجوء إليّ لتحكي تفاصيل حياتك تلك، كم كنت أود أن أتعرف عليك ، تمنيت أن أرى تفاصيلك ودواخلك وتطلعاتك ووجهك الآخر الذي ترويه لها....

لا أدري بأي قانون استحللت لنفسك حياتي، لاأدري ما منطقك، ولا كيف دار هذا بعقلك وقابلته، أعتقد أن اللون الذي تحبه لم يرقَ ليحمل اسمك ويربي أولادك ، وأن النوع الذي يصلح لزواجك لا يحمل نكهة تثير مشاعرك ....
أذكر جيدًا يوم واجهتك، أذكر جملتك (هل أنت امرأة في الأساس) .....
نحن لا ننسي أبدًا ما نتعمد نسيانه، بل ونتعمد نسيان كل ما دونه ليبقى هو مركز ذاكرتنا و هل حاولت أنت أن تطلق سراح هذه (المرأة) المدفونة عميقًا تخاف الخروج، زاد ذلك الثقب الأسود بداخلي اتساعاً، وزاد ابتلاعًا لكياني...
منذ ذلك اليوم....
أصبح مركز ذاكرتي أني لست أنثى...
أنا لا أملك مقومات أنثى..
ولا أرقى لمكانة أنثى.....
:
:
حتى .....
حتى قابلته ولا أدري، أكان أجمل ما عشته يومًا...
أو أسوء ما حدث لي يومًا...

-ما هذه الروائح الرائعة....
قالتها (نور) بصوتها الرقيق فهزت (شمس) من أفكارها، انتزعتها غريقة من عمقٍ دواخلها فالتفتت إليها (شمس) وقالت:
-نور....أهلًا ....
-علمت أنك سألت عني...

قالتها(نور) بانكسار، جعلت (شمس) تهزم ضعفها وتتحدي نفسها وتقترب لاحتضانها بقوة .
أحتضنتها....
حضن طويل قوي عله يوصل إليها الكثير من الاعتذرات الضمنية، لم ترها منذ وقتٍ طويل، كانت تتجنب لقاءها بكل كبر في البداية ثم عادت تتجنبها خجلًا منها ومن نفسها، شعرت أن هناك وصمة عار فوق جبينها ستكتشفها (نور) حين تراها ....
قالت (نور) :
-شمس.... إن زوجك يسأل عليك، اتركي لي المطبخ، واتركي أفكارك التي شردت بها هنا لي، أحتاجها بشدة.....

قالتها وهي تضحك ضحكةٍ جميلة، و(شمس) تتعجب كيف ما زلت تبتسمين نور؟!.... نورها أصبح أقوى من شمس أختها، نظرت إليها (شمس) وهي تخرج من المطبخ وقالت لحالها....
(أنت أقوى مني.... أقوى مني كثيرًا....)

.....

..

نور...
فتاة اجتماعية يحبها الجميع....
رغم أنها وأخواتها كانوا جميعًا مثار إعجاب المحيطين بهم ، لكنها كانت الأكثر شعبية منذ طفولتها ...
تؤثر قلوب الناس...
خمرية البشرة طويلة نحيفة، دائمًا مبتسمة ابتسامة مشرقة، وعيون سوداء واسعة تحمل الكثير من التحدي، وملامح بارزة تحمل الكثير من الثقة والقوة.....
جمال فارسي كما كانوا يشبهونها، في الجامعة كانت ممثلة مميزة في فريق المسرح وعضوة في اتحاد الطلاب، لم تكن متميزة دراسيًّا ، ما

كانت تهتم بالدراسة ، بقدر اهتمامها بثقافتها وحياتها الإجتماعية ، لأنها ببساطة ترى أن الشهادة ليست مقياس للعلم وأن الحياة لا تنغلق على هذه المعايير، فهي أوسع بكثير من الإنغلاق داخل الدراسة فقط، كم كان عدد من ود الاقتراب منها من زملائها ، لا تتذكر ، فقد كان العدد أكبر من محاولة تذكرهم وحصرهم، ثم هي لم تكن رومانسية أو تهتم بالرومانسية حتى وجدته... وجدت (أحمد)..
الإنسان الوحيد الذي اتفقت معه في كل شيء، حتى في خلافهما اتفقا، كان عندها مفهومًا غريبًا عن الحب، ظنته مجرد لذة نتذوقها إذا شئنا ونصدف عنها متى نريد، لكن وجدت الحب أقوى مما كانت تتصور ، إنه يعصف بها متى شاء ويغدر متى شاء.....
إنه السعادة تحتل كل وجودنا فنكون معها ضعيفين لا نقدر من أمرنا على شيء، أقوى من مجرد شعور سطحي، إنه أقوى منا كثيرًا، أقوى ما يحدث في حياتنا، أقوى زلزال يهز كيانك فلا مهرب منه إلا إليه، لذلك بكل قوتها هربت إليه، إلى (أحمد) دون أن تحاول المقاومة ....

_(يا بنات كيف تسرحون هكذا في أفكاركم وتتركون الطعام يحترق منكم) .....
عندما سمعت(نور) صوت أمها التفتت سريعاً إلى الموقد تتفقد الطعام، الذي كاد أن يحترق وهي غريقة أفكارها أمامه دون انتباه، أسرعت نور ترد عليها :

_لا تخافي ماما أنا مسيطرة على الموقف ....
لكن فى داخلها كانت تعلم أنها آخر من يمكنه السيطرة على أي موقف ....

كانت تعتقد دائمًا أنها مسيطرة على الموقف، أن حياتها تخضع لسيطرتها وسطوتها ، فلن يستطيع إفسادها بشر، لكن أفسدها كل البشر من حولها.....
تذكر كيف واتتها الشجاعة عندما واجهت كل من في البيت بأنها تحب (أحمد) وأنها تريد وعدًا منهم بمباركة ارتباطهما بعد انتهاء الدراسة....
نهرتها أمي، وصدمت، وأظهرت لها كم خيبت أملها، لكن أباها كان كبيرًا جدًّا ليحتضن حبهما آملاً أن يصبح مشروعًا حلالًا، باركهما كي لا يشعرا بالحرج والخوف كي لا يهربا منه بل كنا يهربا إليه، احتضنهما قد يضمن أن يبقى قريباً وألا تخاف منه، ولأنه يعلم تماماً أنها أحبت (أحمد) ، الجميع يحب (أحمد) ، لأنه يحمل كل صفات الرجولة.
تذكر حين كام يمشي معها كل يوم إلى مكان (الباص) خائفًا عليها من الناس ومن عيون الناس، لم يكن يمشي معها متشابكي الأيدي كعشاق، كان يخاف عليها من كلام الناس، كان يحافظ على وعد قطعه لذلك الأب، كانا يمشيان متشابكي الخاطر ومتعانقي الأرواح .....

_أنت إنسان طيب وكبير جدًّا يا أحمد....

تتذكر أنها لم تتمالك نفسها لتنطق هذه الكلمات يومها وهي تنظر إليه سائرًا جوارها ، تأملته ، وجهه الخمري وشعره الأسود المجعد....
عدسات نظارته، التي تظهر عينيه البنية المملوءة بكل أمان العالم من جانبها ....
كل يوم تنظر إليه تتأمله وتتأمل فرحتها فيه ...

وتتذكر ردوده البسيطة التي تحمل داخلها أعمق غزل يشعره قلبها :
_يا سلاااااام.... الله على الكلام..... بل كلامك الأجمل وكل ما بك يزداد جمالًا.
كلمات تبدو عادية لكن داخلها تحمل جمالًا لا يلمسه سواها، كلمات تعني أعمق وأكثر من معناها السطحي هذا، تفاصيل حواراتهما وكلماته الهادئة القوية العميقة لا تتوقف عن المرور بخاطرها رغم مرور كل هذه السنوات، كيف كان دائمًا بكل هذا الحب والأمان ، كيف تكون الكلمات السطحية بكل هذا العمق عندما يرددها لسانه هو ويتبناها صوته برصانته؟!....
_أراك تحبينني عن جد.... ألا تخافي أن أمل وأهرب منك .....
قالها لها مازحًا، فردت عليه :
-لن تستطيع الهرب مني أبدا.
- صدقت ، أنا لن أقوى على الرحيل أبدًا، أنت الأكسجين في حياتي، من دونك أموت....
ضحكت ثم قالت :
- أسرع، الأكسجين سيفقد (الباص).....
لم يكونا يمشيان على الأرض، بل يطيران فوق إلى السماء فلا يشعران بما في الأرض، الشوارع المزدحمة لهما نعيمًا، ورائحة الدخان كالياسمين والعطر، وصخب الشارع أبدع من أي سيمفونية تتلاعب بالعقل، كان وجوده يخلق وجودًا آخر في بعدٍ آخر لهما .
...كان....
كان ذلك هو الحب.....
أشار لها من نافذة (الباص) وهي تلوح له قائلا :
_أرسلي سلامي إلى بابا .....
وقد كان هذا آخر لقاء سعيد بينهما، آخر كلمات سعيدة بينهما...

مازال محفوراً الأمر كله بكل تفاصيله في ذاكرتها،لا يمكنها محو أشباحه عن خيالها وتفكيرها، تذكر وجهه وابتسامه، وهو يؤكد على سلامه لوالدها .....
تعلم كم تمني أن يكون له ابنًا صبيًّا فاتخذ من (أحمد) ابنًا له...

.....

خرجت (نور) من المطبخ مضطربة وجلست على أقرب كرسي من النافذة تستنشق الهواء عبرها ، لعل ذلك الشعور الخانق بداخلها لأنها بحاجة إلى هواء نظيف بعيداً عن أدخنة المطبخ ، جاء الأب وجلس على كرسي مقابل لها وهو ينظر إليها، كمن يريد أن يقول شيئا لكنه لا يقوى على الحديث، أما هي فكانت عيونها تتحدث إليه..

أبي ....

أذكر يوم جلست معي في نفس هذا المكان ذلك اليوم الذي تتجنب دائماً الحديث عنه ....

_يا ابنتي ارفعي عنه حرج النكوث بوعده لنا، هو لن يتحمل أن يكون عاقًّا بأمه ولن تتحمل رجولته النكوث بوعده لك، ارفعي عنه الحرج واطلقي له الحرية أن يختار بلا قيود.

نظرت إليك أبي متألمة، يعتصر قلبي، وتنسلخ روحي مني، كل دموع الكون لا تكفي لغسل جرحي هذا..

_أنا لا أقيده أبي، ولا يوجد بيننا رباط يقيده سوى كلماته، ووعوده، يختار ما يشاء أنا أعفيه من وعده لي.
كانت دموعي تنهمر كالأمطار وأنا أتحدث إليه ، موجوعة من داخلي، من ثقل الطريق وتبخر الأحلام ..

وتفتت قلبي...
لا أستطيع تقبل الواقع وصديقه، ولا يمكن الاعتماد على أحلامي...
هدمت كل قصوري في لحظات...
انهار عالمي كله بكلمة واحدة.....
كلمة واحدة منها.....

.....

.....
ثم في أحد الأيام ..
.....

ابتلاها الله به ....
...ابتلاها به .....
ابتلاها حبه.....
وشعرت به...
كانت أول مشاعر حقيقية تتحرك داخل (شمس) ، تحركت بقوة يوم التقت به وشعرت أنها تقف أمام رجل ، أمام رجلها....
قفزت الأنثى المحبوسة داخل (شمس) ، تجري إليه متلهفة دون وعي ودون منطق ودون أن تدري ما تفعله، تحولت في لحظاتٍ معدودة إلى أنثى كاملة لأن عيونه أخبرتها ذلك، تلك الرغبة في صوته أخبرتها أنها امرأة كاملة ، ذلك الاشتهاء الذي تراه في عيونه كان أول اشتهاء حقيقي تراه منذ تزوجت ، نظرته الجريئة تستفز حواسها الراكدة ، شيئًا داخلي لم تدري عنه من قبل.....
كلمة واحدة منه روت أنوثتها ...

حتى أن (صباح الخير) تحمل داخلها معاني أقوى وأعمق من كل كلمات الحب في الأشعار، كانت مشاعر جديدة عليها لم تعهدها يومًا ودفء أدمنته حواسها ، ضعف لذيذ يبعث في أعماقها القوة لحبه، إشراق لقلبٍ جديد ينبض داخلها بقوة ، هاتف أخبرها ؛ أنها أصبحت أخيرًا أنثى.....

كان مصرًّا ومستميتًا على إخراج تلك الحبيسة داخلها ، إقتحمها بقوة وجرأة لطيفة، ظل يقاتل أمامها بلا استسلام وبكل ضراوة ليخرج كيان راهن نفسه على وجوده داخلها وفاز بالرهان، .....
كانت موجودة، بانتظاره، بلا مساس، كما تركت في مكانها منذ الأزل، بكل عواطفها البريئة البيضاء النقية تنتظره، عواطف لم تستخدم من قبل، حواس لم تستيقظ من قبل، دخلت عالمًا كل ما به ملون بألوان قوس قزح....
وكل ما به يغرد....
يغني....
يحب.....
ويحيا بسلامٍ... وأمان... وتواصل...

في البداية اعتبرته صديق، فقط صديق وما ضير وجود صديق، رغم أن هذا ضد مبادئها، لكنها فقدت نصف مبادئها مع فقدان اخلاصها لزوجها بالفعل، لماذا تخلص لخائن، تحافظ على مشاعر خائن، لا تهتم إن آلامه وجود صديق بحياتها، بليت أمامها أغلب قيمها بفضل زوجها كما أنها تحتاج هذا الرجل، هي بحاجة للارتواء ، تحتاج لرجل بحياتها ، أمر لم تجده ولن تجده جوار زوجها ، لذلك رغما عن إرادتها غيرت كل مبادئها كي يبقى هو داخل إطار حياتها، ولعلها

كانت تحاول خداع نفسها بفكرة أنه مجرد صديق كي يبقى جوارها، تحتاج من يضمد كرامتها وينتشل بقاياها من هذا الحضيض العميق الذي سقطت به داخل ذاتها ، ذلك الإحساس القوي بالنقص لديّها، كانت تتألم ووجوده هو الشيء الوحيد الذي يسكن جروحها وألمها، لملم شتاتها وما بعثرته الأيام داخلها ....
لم تستطع مقاومته ، بل لم ترد مقاومته لأنها لم تستطع مقاومة نفسها فيه،هي كطفلةٍ تتشبث بيد أبيها، تشعر الأمان ومستسلمة جدًّا في وجوده، ذهبت إلى أرضه دون وعي بأنها نزلت إلى ساحة معركة، في البداية كان مجرد مدرس لابنتها يأتي للبيت في عدم وجود زوجها، الذي لم يهتم أن يبقى بالبيت رغم وجود رجل غريب ، وذلك أشعرها بالإهانة في البداية، عدم غيرته أشعرها أنها ليست أنثى ، وشعور الأمان بوجود رجل اخر بالبيت يؤكد أنها ليست أنثى، وذلك زاد عمق الجرح داخلها، لكنها مع تسلسل الأحداث بينهما ارتاحت بعد ذلك لعدم وجوده ، بدأ الأمر بينهما ببضع أسئلةٍ بسيطة، مناقشات حول الدراسة ثم رسائل قصيرة حول أمور الواجبات ، تطورت مع الوقت والفراغ والسهر وحيدة إلى حواراتٍ طويلة ، عدمَ وجود زوجها الدائم أعطي ثماره ، وبدلاً من التعاسة التي تشعرها حين خروجه أصبح الأمر مريحاً لها، ولم يتوقف الأمر بل أصبحت تنتظره كل ليلةٍ في نفس الموعد رغم عدم وجود سابق اتفاقٍ أو موعد، بل أصبح روتين يومي، نمطَ حياة .....
تتذكر كيف شعور كل ليلة وهي تجلس تتحاور معه وكل كلمة كان يكتبها لها أو تسمعها منه...
_(شمس).... هل تجيبي فزورة....
قرأت الرسالة وابتسمت ثم كتبت له ردها :
_- أية فزورة ؟

_لو قلعة تحترق وتستطيعين إنقاذ واحدٍ فقط.... من تختارين ...
رجل غنى لديه 10 أطفال ....
رجل فقير لديه 6 أطفال ....
شاب تنتظره عروسه في ليلة زفافه .....
ستختارين رقم اثنين صحيح ؟؟؟؟؟

حسنًا إن كان هذا اختياري وهو توقعه كالعادة كمن يقرأني من خلف الشاشة...عليّ أن أتحايل عليه قليلًا ....

_-لا.... سأنقذ نفسي أولًا.....

_هههههههههههههههههههههه

رغم أنها كلمة كتبها إلا أنها رأت فيها ابتسامته من وراء الشاشة، ابتسامته الودودة الجميلة، وهي تتمنى لوتستطيع رؤيته الآن ، احتضان وجهه، وتقبيل نظرته لها...
رد كاتبًا...
_هل يمكنني الاتصال بك.

_ليس الآن، زوجي مازال بالمنزل.

_حسنا ، سأنتظر اتصالك بعد خروجه مباشرة، أرجوك لا تتأخري على .

ثم عاد فكتب لها :

_هل تعرفين هذا ليس اختبار ذكاء ....

_اختبار لرد الفعل ؟؟؟؟..... الطبيعي أن الإنسان ينقذ نفسه أولًا .ثانيا أنقذ الغنى واحصل على مكافأة كبيرة، ولا أعتقد أني أرغب في انقاذ العريس، الموت أرحم له....

كتب لها :
_.....مفترية .....

_بل واقعية ....

_لست واقعية... بل أنت أكثر من يخاف الحقيقة.

تعجبت (شمس) فكتبت له :
_كيف؟

فرد بالمقابل :
_تشعرين أني قريب منك وأفهمك كثيرًا، وتخافين الاعتراف بذلك.

شعرت بالارتباك ، حتى أنها شكت أن يكون يراقبها بكاميرا خفية فيعلم كم أربكها، فكتبت له :

_لا أفهم ماذا تقصد؟ ...

_يا (شمسي) أنا حللتك من ملامح وجهك....

_وكيف ذلك؟

كتب لها :
_سأخبرك ذلك، أنت شخصية رومانسية، لكن جادة، تخافين أن تكوني واضحة لذلك تخفين داخلك نفسك الحقيقية، وتظهري وجهًا باردًا لا مباليًا رغم أن هناك بداخلك، أنثى رائعة مزهرة، جميلة رقيقة وحساسة، ساخنة شغوفة راغبة متعطشة، شديدة الحساسية والشفافية ، تحب الأماكن العالية والمفتوحة والخطرة.

بلعت (شمس) ريقها بصعوبة، وهي تقول في نفسها (يا ربي لعله يراقبني حقًّا.... يضع كاميرا داخل نفسي ....)
كتبت تحاول تجاهل هذا الكلام وتأثيره داخلها، ومحاولة التخفي والهروب من محاولات المستميتة لكشفها:
_أبدًا.... أنا لديّ فوبيا من الأماكن العالية...

فكتب رده سريعاً بكل ثقة :
_لا غير حقيقي، أنت شخصية حماسية تحب المغامرة وأنت أيضاً حاسمة... منظمة... ودقيقة... لديك كل مقومات الشخص الناجح، لكن من نظرة واحدة لحزن عينيك ، أنا متأكد أنك ناجحة في كل شيء إلا زواجك، أنت بعيدة جدًّا عن زوجك، لم يتواجد رجل من قبل في حياتك يروي عطشك ولهفتك.

its your imagination …..we are perfect_

-مجرد تغييرك للغة، يعني أنك تحاولين إخفاء حقيقة ، أنا أثق من وجهة نظري، لأنه ليس مجرد رأي، هذا علم، أثق أيضًا أنك لا تكوني الطرف الأول في أية علاقة حب، لأن هذا لا يتماشى مع شخصيتك، أنت تحبين من يحبك، تنتظرين من يقتحمك، أنت غريبة، داخلك الكثير من المتناقضات أهمها أنه برغم مرحك ومظهرك الاجتماعي البشوش، أنت كتومة بطبعك، وحولك الكثير من الحدود والسدود، تجعل الاقتراب منك صعبًا ومرغوباً .....

.....

.....

.....

.....

.....

في ذلك اليوم...

دخلت (نور) غرفتها تجرجر همها وإحباطها... بائسة تتلحف خيبات فوق خيبات وتتدثر بالبؤس.....
جلست وحيدة في الظلام الذي ظل سواده يزيد ما بداخلها من همّ، حتى أصبحت كتلةً سوداء من الكآبة.....
تنظر إلى الهاتف وهي تدعو ....
تنتظر وتتمنى أن يتصل بها ....
وفي عمق هذا الظلام الكامن داخلها، رنة هاتف واحدة أحيت في داخلها روحًا في شبه احتضار، أحيت داخلها الأمل، أضاءت قلبها وتزايدت دقاته، الأمل قائمًا في سماع نبرة صوته ودقات انفعاله في أذنها، لكن لم يكن ذلك إلا حلم تمنته ، فقد وصل أذنها صوت مخذول لم تعتاده من قبل ، رحلت نبرات الانفعال والحماس واحتله حزن عميق ، غربة، و خذلان ...
هذا الصوت لا تعرفه.. لم تعتده يومًا...صوت غريب عنها..
قال ببطء ودقات قلبها ترتفع رويدا رويدا مع كل حرف :

_(نور).... سامحيني إن كنت سأرمي بهمومي وحمولي عليك ....أنا مشبع بالوجع ...
صمت لحظة، وصمتت هي بالمقابل، تحدثت دمعة وحيدة سقطت منها سهواً ، تبعتها شهقة مكتومة تعاند كبريائها، وهو يقول :
_تضعني أمي في موقفٍ لا أحسد عليه... كيف أبتعد عنك... وكيف أبتعد عنها... أنا لا أستطيع العيش من دونكما معًا.....
زادت دموعها وقد رحلت عنها آخر محاولة تماسك، وزاد قلبها انتفاضاً وشهقاتها المكتومة تكاد تقطع أنفاسها وتقتلها بصمت ، وعقلها يتساءل ، (هل سيختارني ، هل سيختار أمه ، وهل الفوز في هذه المعركة يعد فوزاً أم سيكون أول خسائري)

لم تتمكن من الكلام ولا الرد، فقط صمتت وأنصتت وهو يقول :
_(نور)... أنا اخترتك... هذا صوت عقلي الوحيد... إنها أمي ...ستسامحني يومًا... وستنسى كل الخلاف إذا ما احتضنت أولادنا... ما يجمعني بها غير قابل للكسر والانهزام..... أما ما يجمعنا قد تمزقه الأيام... وقد يحل محلنا أغراب ليسكنوا حياتنا ....أنا اخترتك.. ولن أبتعد عنك يومًا.

شعرت نور ببرودة وقشعريرة تحتل جسدها وكيانها كله من رأسها إلى أخمص قدميها، كمن يسحب منه الروح، عكس ما ظنت أن ذلك الخبر سيغمرها بالسعادة ، لكنها ظلت صامتة لا يُسمع إلا لهيب أنفاسها المتسارع عبر الهاتف، وقتها علمت أن ذلك ليس ما تتمنى، اختياره لم يرضها بل شعرت بالمزيد من الإهانة داخلها، لم يكن هناك أي حل بديل يمكنها أن تقبله، إلا مباركة أمه لزواجها منه.
احتارت وتداخلت الأصوات بعقلها .....
وعقلها يتساءل...
(وكيف أتحمل انهزامك وعجزك وكسرة خاطرك؟ تحب أمك وأنا أباعد بينكما ، هل سأعتاد هذا البؤس الذي أسمعه في صوتك دون أن يعذبني ضميري؟ كيف أتحمل ذنب إفساد علاقتك بأمك وكيف ستظل تحبني في خضم هذا الشعور البائس، هل ستحبني بنفس القوة تحت مظلة الشعور بالذنب والغضب وكسرة قلب أمك؟
حقيقة ما بينكما غير قابل للكسر، لكن ما يجمعك بي سيظل قابل للانكسار والانهزام، كما أن ما بيننا قد يكون قابلًا للنسيان حين تأتي من هي أفضل مني من أجلك.)

في النهاية غالبت نفسها ونطقت بخلاف ما يمليه عليها قلبها وعشقها وكيانها وقالت :
_حسنًا أحمد... أفضل أن أرحل الآن وأنت تحبني...عليّ الرحيل المتأخر وبيننا ما مزقته وطأة الأيام ومشاكلها وغضب أمك.... انتهى الأمر أحمد...اختر أمك....

لا أحد يعلم كم يكلف الثبات أمام من تحب لتعلن له أنك لم تعد تريده ، ولا حجم الشجاعة التي يتطلبها الأمر كي لا يخونك قلبك وتحن إليه الحروف والكلمات ، ولا حجم القوة المطلوبة كي لا يفضحك صوتك، لا أحد يعلم حجم هذه المعاناة إلا امرأة جُرحت كرامتها.
(نور)...
لا تنسى أبدا تلك النهاية، تلعن كل يوم غباءها وتنازلها عنه، اختارها أحمد ولكن كرامتها أبت أن تتزوج بهذه الطريقة، نزعة كبرياء أطاحت به رفضأ لا رجعة فيه ، لم تكن تعلم كم يكلف هذا الثبات أمام من تحب، كم يكلف رحيل قلب يحبك...
وستظل تحبه للأبد.

...

.....
...

أنا لن أطلب منك الكثير...
لن أسألك رد الحنين ...
أو أطمع عطايا المحبين....
لن أقول لك كن طفلي...وأنت سيد الرجال...
أو أطمع منك ببعض الوصال....
وقد غلفه المرار...
ثم أرداه طول الانتظار....
فصار حلم محال....
لا أريد وعوداً وقصرًا....
أو ورودًا وسفرًا.....
لا تعانقني.... لا تكن ملكي ....
لا تعاتبني...لا تكن أملي ....
لا تهدني طوق الياسمين ....
لا تسقني نبتة بأرض الهالكين ....
لا تكن في كوني أسير .....
كن على أرضك أمير ...
ولو كان المقابل الرحيل عني ....
ولا بديل .....
فكن طيبًا من أجلي ....
....كن طيبًا لي ....
.....
...

.....

.....

تململت (جميلة) وهى ترى زحام الشوارع والسيارات، داخل سيارتها الصغيرة؛ بدأت تفقد الأمل أن تصل اليوم إلى أختها (هنا)، يجب أن تصل بها إلى مصفف الشعر في الوقت المناسب،
ياالله، ما هذا الزحام دارت الفكرة بخاطرها، مختلطة بكل الأفكار الأخرى، كانت مضطربة الخاطر رغماً عنها، هاهي آخر أخواتها تتزوج، وتبقي هي وحدها....
و يا ويلها من زيادة سياط ألسنة الناس لها، سيزداد اللوم والعتب، ويا ويلها من هذه الليلة ولقاء كل نساء الفرح ، يوم فرح أختها، سيكون يوم كيها بسياط الألسن، تقول في نفسها :
(لم أسميتني يا أبي جميلة!.... ها قد فقدت كل البراهين على إثبات اسمي.
كيف للجميلة أن يزهدها الرجال، وأن يكون كل ما بها يحمل صفة العادي، ملامح عادية لا سمراء ولا بيضاء، لا طويلة ولا قصيرة، عيون سمراء ليست جميلة ولا قبيحة، وحتى شعري متوسط الطول ليس بالناعم وليس بالمجعد، ليس بي ما يحمل أي صفة استثنائية تذكر...

غير اسمي..(جميلة)....)

قُدر للجميلة أن تكون وحيدة جدًّا في هذا الكون، وكأن من تزوجت قد نالت شرف الأنس والوداد والحب والسعادة، فتتألم هي لحالها، مع أنها ترى أختيها قد انتهى بهما المطاف وحيدتين مثلها تمامًا رغم زواجهما و بمزيدٍ من أعباء الحياة الإضافية كانوا في غنى عنها، قد تكون الأفضل حالًا، على الأقل ليس عليها هذه الأعباء والقيود، وشروط رجل لم يزد دوره في حياتهما عن سجان، لكنها بداخلها مازال هناك ذلك الحنين لتجد الحب وتعيشه ، الأمل أن لا تمر بنفس نفق الزواج المظلم مثل أختيها.
حتى(شمس) ....
التي برهن الجميع على نجاحها وسعادتها، والتي صدقت هي نفسها أنها سعيدة حتى وقتٍ قريب، كانت تبدو زوجة مثالية حياة مثالية وزوج وأطفال، لكنها تذبل أمامهم وتنزوي وتصير شبحًا، سكنتها الكآبة وأدمنت المنومات وأهملت بيتها .....
تتمنى لو تعلم من قتل(شمس)، فتقبض على روحه كما قبض روحها، ليتها تفتح قلبها وتبوح، فتجبر خاطرها وتهدهد جراحها ، لا أعطاه الله ولا رزقه قاتلك يا شمس....

(جميلة)...
هي فتاة قاربت الأربعين، ولم تتزوج ، مرت بها الأيام، والكل حولها يتساءل؛ لِمَ لم تتزوج بعد؟! والمجتمع الشرقي ينظر للفتاة التي لم تتزوج، نظرة متخلفة، دنيئة، متدنية ، لأنها أصبحت بضاعة غير مرغوبة، مع حتمية إلقاء العيوب عليها، كأن الزواج ليس نصيب وقدر من الله.....

هي ككل فتاة تمر بهذه التجربة ، أغلقت مسامعها عن كلام الناس، وذهبت تنظر إلى مستقبلها واعتمدت على ذاتها وحققت طموحًا صعبًا على أي فتاة تحقيقه، لكن مازال مقياس نجاح الفتاة الأساسي منظور واحد...
هل تزوجت ؟؟؟؟.....
...تزوجت وأنجبت .... أم لا ..
حتى هذه التي لم تنجب مازال نجاحها معلق، غير كامل، أصبح نجاح المرأة الوحيد شيء لا حول لها فيه ولا قوة نجاح غير آدمي، يتناسى الجميع نجاحًا وراء نجاح تخضه بنفسها، وحدها، لا يقدر عليه كثيرًا من الرجال، لكن مهما كانت إنجازاتها مازلت في عين الناس في خانة الصفر، خانة اللاكمال ....
وكأن المرأة لابد لها من رجل كي تكتمل ، حتى تصبح ذات قيمة، اليوم على (جميلة) أن تنتظر نصيبها من الانتقادات والتلميحات المستمرة ومصمصة الشفاه وطقطقة الرؤوس ونظرات الشفقة، و تتحمل الأسئلة...
لِمَ لم تتزوجى؟!!!! أين ذهب كل الرجال؟.....
كيف أنها ليست بالجمال الكافي لتتزوج ! لابد أنها تتبتر حتى فاتها القطار وهذا بالنهاية عقابها وما اقترفته يداها، أو ظن الناس الخبيث الذي لا يقال إلا غمزا ولمزا لابد أن لها ماضٍ قذر يمنعها من الزواج ، يظل الناس تبحث وتبحث عن الأسباب، والسبب الوحيد لدى رب الأسباب .
ظلت (جميلة) تجلس داخل سيارتها وقلبها مملوء بالحزن والأسى، متوجعة من وجودها في هذا المجتمع العقيم، تؤلمها نظرة الناس وأقوالهم ، متألمة من الرجال، ويالا عالم الرجال ....

يحاوطها الطامعين من كل جانب منذ سنوات ظانين أنها تعاني من فراغها العاطفي الذي قد يضعف حالها وأن ضعفها هذا سيجعلها تتجاوب مع أي عابر سبيل لتملأ فراغًا تركته المشاعر داخلها ، أو أن عليها أن تتقبل الحد الأدنى من العروض، بل وتقبل كل شروط العقد المتعسفة، أشعروها بالمن والصدقة لأنهم قبلوها، هيهات على هذا المجتمع الغريب ومنه وصداقاته، وطوبى لمن نجت بحالها منه، كم تتمنى الرحيل ، ليتها تستطيع الهرب والنجاة من هذا العالم،...
في وسط هذه الغمامة السوداء تذكرت(سراج) ، كان درسًا لم تنساه ولن تكرره، (سراج) سرب إليها الأمل بأنها على وشك تعويض نفسها أخيرًا ببعض الحب..
والمشاعر الحقيقية ....
وتلك قصة أخرى.....

مازالت (نور) تجلس جوار النافذة تنظر إلى الشارع والناس، تستنشق الهواء لكن صدرها لا يلين، بل يزداد ضيقاً مع ارتفاع الذكريات داخل عقلها.....

(عزيزي أحمد، لم أتعمد خذلانك ....
خذلتنا الوعود .....
خذلتنا الأيام .....
وخذلتنا أمك فلم تعلن رأيها هذا من البداية، خذلتنا حين تركت كل الفرص مفتوحة ومتاحة للقرب والاقتراب ، تركتنا نرتب أحلامًا قبل أن تعلن رفضها بمنتهى القسوة، رفضتني بكل قوة وإصرار، لم تركتني أحلم من البداية .....
أو لعلي أنا من خذل نفسي يا أغلى ما ملكت في هذه الحياة، حين فرطت فيك وحين قررت الارتباط بأول من يقرع بابي، فقط لكي أقطع كل خيوط الرجعة...
عاندت نفسي، فلم تكن بي قوة، حتى أبي كانت موافقته غير متأنية، هو كأنه يتمنى أن تنتهي كل الحكاية بفرصة جديدة، أعلم أنه أيضاً شعر بأنه خذل نفسه وخذلني بذلك القرار المتسرع.
تخيلت للحظات أن ما بيننا يمكن أن يصبح عميقًا، تخيلت أن تجربة جديدة قد تثمر، مثل علاقتنا يا (أحمد) لكنه أصبح عقيمًا لا يزهر ولا يثمر وبكل سرعة، اعتقدت أن دخول علاقةٍ جديدة ستجعلني أنساك وأنسى قصتنا.....
لكنه كان يذكرني ويربطني بك أكثر وأكثر، لم أنجب منه أطفال وعلاقتنا مقطوعة أغراب نعيش في بيتٍ واحد ....

لا أعلم متى أصبحنا هكذا، ولكنى رأيت بوادر كل هذا من أوائل لحظات ارتباطنا وكابرت ، كنت أعلم نرجسيته وضيق آفاقه وآراءه المتعجرفة، ثم ظننت أن بإمكاني تغيير كل هذا، ظل الأمل يطاردني، ظننت أن الحب يغير لكنه لم يولد بيننا، ظننت أن القرب يغير لكنه كان دائماً بعيد، وأن بالهجر قد يجعله يفتقدني لكنه لم يتغير وظللت أحاول تتغيير ولا أمل من تغيره ...
بل أنا من تغير بالنهاية ، أنا من قبلت ورضخت ورضيت، ثم انتهيت...
لا أحد يتغير، إما أن تتقبل شريكك كما هو بكل ما فيه، أو لا ترتبط به، لكن عندما تحاول قلب كيانه ليوازي معاييرك وتفكيرك، فأنت لن تستطيع أبدًا، كان كلانا يحاول تغيير الآخر بكل قوة، ولا أحد فينا يقترب من الآخر ، ولا نتوافق، ولا يُخلق بيننا الحب ....
حتى أتى ذلك اليوم .....
لم أنساه أبدًا.....
فشل حملي وأتاني نزيف قوي وكنت أُجهض، لجأت إليه والهلع يقتلني، لكنه لم يتحرك من مكانه، لم يرضى شعور داخلي أراد أن يراه يهلع، يخاف ، يرتعب علي أو أن أرى في عينيه بعض الارتباك، أن يجري علي ويحتضنني ، لم يكن أمراً ترفيهيًّا أو بلا داع، كان ذلك يعني لي أني أستحق، يعني لي الأمان والحماية والنجاة، كان سيجدد السكينة التي تسرى في شرايين روحي وأوردتها..
كان احتضاني يعني لي العزاء والقبول والاهتمام والتواجد، لكنه بكل برود لم يستجب لندائي الصامت جلس مكانه ينهي قهوته ، أعتقد أن المواقف الصعبة هي ما يظهر قيمتنا الفعلية، وكذلك يظهر معادن الناس، كنت في موقف لو قابلت به ألد أعدائي لهب لنجدتي لكن

تخلى عني من أملت في سنده وحبه واهتمامه، و قام بواجبه كاملاً حين تكرم و أوصلني لأهلي ثم استأذن ليرحل سريعاً لأصدقائه ،ساعتها أمسكت كفيه راجية :

_أنا أموت خوفًا...لا تتركني وحدي؟

قلتها وأنا مرعوبة، خائفة، وأبكي، لكنه رد قائلاً :

_لدي العديد من الأمور، لا تخافي لست أول امرأة تمر بهذا ،أمر بسيط، شدي حيلك ....

عدت أتوسله راجية :

_لكني خائفة... وإن مر بهذا كل نساء العالم...

ثم أجهشت في بكاء قوي وأنا أتمتم:

_أنا خائفة جدًّا جدًّا.....

تأفف ولم يرد علي ثم نظر إلي أمى وقال:

_سأكون قريبًا إن احتجتم لأي شيء... سلام عليكم ....

بعدها بلحظات اتصلت به، لعلي أقنعه بتغيير رأيه، لكنه كان قد أغلق هاتفه.....

فقط رحل... وأغلق هاتفه ...

تركني وحيدة وأغلق هاتفه....

أخذني أبي وأمي إلى المشفى، وجميعنا نعجز عن الحديث عن رد فعله وبروده، لم يقولا شيئا، لكنهما احتضناني ،أشبعا احتياجي الشديد لترياق نجاة من هذا اليوم التعصيب، كانوا منحتي الربانية في هذه المحنة.

وأشهد الله أني كرهت ذلك الرجل كُرهًا عميقًا من كل أعماقي في هذه اللحظة، كنت فقط أتمنى وجوده إلى جواري؛ إن لم يكن بدافع

الحب فبدافع رباطٍ مقدس قيدنا سويًّا، وقد تركني وحدي مريضة، ليس له حاجة بي في هذا الظرف ، كم كرهته، وكم تمنيت طوال الوقت، مع ألمي وخوفي ودموعي، أن يكون إلى جواري (أحمد) ، لم أكف عن تخيله والشعور به حولي، دخلت حجرة العمليات وأنا أحتضن يده في خيالي، لم أكن أستطيع النجاة من هذه المعاناة دون وجوده جواري في خيالي، دون أن أعلم أنه هنا جواري...
وداخل قلبي....
لِمَ لم أجد من ينتزع مكانته من قلبي؟!..
.لِمَ لم أجد ما يعوضني غيابه ؟!...
لِمَ لم يفتح باب حنيني إليه كلما أغلقته؟!.....
عندما أفقت ، اقترب أبي مني، احتضن وجهي وقبل جبيني وشعرت ببقايا دموعه على وجهي ، اقترب وهمس....
_يا حبيبتي.... لولا ذكر الله لماتت قلوبنا غمًّا.... هو أقرب إليك من حبل الوريد....
كأنه شعر بما تدور به نفسي، كأنه استشعر انكساري ووجعي وحنيني، كأنه يوجهني طريق آخر غير التعلق بأي رجل والاعتماد على وجوده في حياتي، فلا أحد قريب قرب الخالق من نفوسنا، همهمت هامسة، ودعائي يملأ كياني وقلبي ....
_نعم أبي .....ونعم بالله.....

.أعتقد أننا ولدنا لأشخاصٍ معينة لا نتفتح ولا نزهر إلا على أيدهم ، كانت حروف قليلة منه تجعل جسدي يرتجف من الفرحة وقلبي يرقص سعادة وروحي تطير وتحلق عاليًا جدًّا، كان ما بيننا قويًّا جدًّا لا نعلم له سببًا، كنا فقط ننجذب كالمغناطيس، وأذكر أنك سعدت بإشراقي في هذه الفترة، زوجي عزيزي كنت أشرق لغيرك، ارحل أنت لعاهرتك لا أهتم ....

....

مازالت نبرة صوته ترن بكل حنين داخل مسامعي:

_شمس ...

قلت:

_نعم ...

قال:

_أعتقد أنك تحبيني.....

فزعت وقلت ناهرة :

_أنت مجنون؟

فرد ببساطة :

_نعم مجنون، أنا مجنون بك، وأخشى اليوم الذي تظني أني عبء عليك أو مجرد تشتيت لذهنك وتقرري الرحيل عني أو إن صح التعبير التخلص مني.....

قلت له بلهجة أحاول أن تبدو حازمة :

_نحن مجرد أصدقاء، لماذا هذا الكلام؟ ...

فرد قائلاً:

_على من تكذبين؟.. ما يجمعنا عميق قوى قريب وغريب رغم بعد الأماكن....

قلت :

_لا أفهمك... لماذا تقول هذا كله؟
فقال:
_لأن كل علاقة بين اثنين لابد يكون لها تصنيف، لا يوجد شيء في الحياة بلا اسم ولا تصنيف، أنت مقتنعة أن ما بيننا مجرد صداقة ؟
رددت بثقة:
_أكيد... طبعًا...
فعاد يقول :
_أغمضي عينيك لحظة وتخيلي وجودي أمامك، وفكري قليلا، هل تحبين أن أحتضنك بين ذراعي، الأصدقاء ليس بينهم انجذاب جسدي يا (شمس) .....
أغمضت عيني للحظة، ثم أسرعت مغلقة الهاتف، لقد كان علي حق، أنا أسقط في الوحل يا ربي، أنا أسقط بين يده، و لا أستطيع منع نفسي، وجدت لديه احتياجي، وجدت علاجي، كان الدواء الشافي لوجعي، كان الجواب الشافي لأسئلتي....
أسئلة تدور حول نفسي .....
أقنعني بنفسي حين كفرت بها.....
وجدت عنده حب بصورته الخام النقية، كان يكفيني، يملأ ذلك الفراغ ، ذلك الثقب الأسود الذي هم بابتلاعي، أذاقني ترياق الحب، وأقنعني من أجله السقوط، بكامل وعيي....
حاولت ليلتها النوم ..
فشعرت أني أتلحف جمرا وأرقد علي شوك، وخاصمني النوم، وجافتني الراحة، واستيقظت في الصباح أشعر بتأنيب ضمير وكره لحالي، أشعر بأني لست نظيفة ولكني لم أتسخ بعد، فتحت هاتفي، وجدت رسالته...
_شمس... أضيئي عالمي، أدخليه ، اقتربي، تعالِ لي أرجوك.

.....

أتلك عيون تغويني.....
أم سطعت لتشفيني.....
أجئت إلي تكفيني.....
أم أنت ستبكيني.....
أتلك حروف ترويني.....
أم تقتلني فتردِيني.....
ملاك أنت في بشرٍ.....
أم جان لتأبيني....
احترت في أي متجه .....
أآتي أم ستأتيني.....
.....

زوجي العزيز، نظرت إليك جواري بالفراش وأنا أشعر باللاشيء الذي يوجد بيننا، ما بيننا صار عدم، فراغ ...
كلانا يسقط ...
أنت أفسدت منزلًا لطالما حلمت به نظيفًا عفيفًا مفعمًا حبًّا وإخلاصًا ، أنا أحلق هناك في سمائه لا أشعر بشيء سواه، وكل وقتٍ من دونه يمر ثقيلًا لا طاقة لي باحتماله....
كان يسير في عروقي ومع دمي، كان أنفاسي، وفكرتي الوحيدة، كان خمرًا لذيذًا أدمنته ، كنت أعيش معه ، خيالي معه وروحي معه، كنت هناك عزيزي لا هنا، كنت مخدرة تمامًا ولا أملك أي قوة لرد نفسي، أحلم بلقائه، أحلم بلمسته لي، أحلم بكل ما تمنيته معك ولم أجده، أحلم به هناك معه....
ثم أبكي... وأبكي ....
وكم بكيت وكم صليت ليردني الله عنه، أصلي وأشعر أن الله لا يقبلني، فلو قبلني، لنزعني من هذا الطريق، لنزع عشقه من قلبي وقوى عزمي وعزيمتي، كنت أكره هذا الانقياد الأعمى إليه، ولا أملك رد نفسي ....
فصرت أكره نفسي .....
صرت أكرهني.... أكرهني لأحبه ...
هل تعتقد أني استطعت إعفاءك من لومي، كنت أنت دافعي إليه بكل قوة، تتركني وحدي، لأجده أقرب لي منك.
.....
حتى جاء اليوم المشؤوم ....
وحدث ما لم أتخيله فجأة ....
ما لم أحسب حسابه ...
ابتعد فجأة .....

قرر فراقي ...
ما عاد يرد اتصالي ...
أو يهتم برسائلي ...
لم أصدق في لحظتها ...
كيف أو ما السبب الذي حمله لفراقي؟....
أهو شدة حب وتعلق، أم أنى فقط لم أعطه ما يريد؟ ...
كنت عاجزة عن الفهم والتمييز ، كنت أتخبط حول نفسي كمدبوح يخرج آخر أنفاسه، كانت مفاجأة سيئة الوقع على، بعد كل المطاردات والكلمات السحرية والفوازير والمحاولات المستميتة لتقريبي والاقتراب مني ....
فقط ، قرر فجأة بلا مقدمات أو أعذار الرحيل ....
وتُركت....
تُركت وحيدة للمرة الثانية ....
تُركت....
تُركت لشعوري المتدني ....
تُركت....
تُركت ...مرة أخرى ....
عوقبت بالهجر.... من جديد ، هل كان لابد من الفراق؟ ...
هل ما بيننا لم يتحمل اقترابًا أكثر من ذلك؟ أم لم أستطع تقديم ما تقدمه العاهرات؟ لم أمتلك يومًا الإجابات ....
هل كنت مجرد لعبة ومل منها، مل المطاردة بلا نتيجة ولا فريسة ولا انتصار، لا أعلم حقًّا ، لم أملك إجابات في ضباب حنقي هذا، كل ما عرفته أني كنت ملك لمن لم يستطع اقتحامي أو الاقتراب مني، في حين لا أستطيع تقديم شيء لمن طلبته كل أحلامي، كان فقط الرحيل

والفراق والانهزام والانكسار والذبول ، السقوط من أعلى قمم الأحلام إلى قاع المذلة والانكسار ....
إلى قاع المهانة ، إلى نزيف من كرامتي لم يتوقف للحظة، علي مدار شهور، نزفت مشاعري، وخارت قواي، شهور طويلة لم أشعر إلا الألم ، كان في بعاده كل الطرقات تحمل مرارًا وكل الأصوات في عقلي عدم وكل الأحلام سراب، كنت أموت بمنتهى البطء والألم ووحيدة جدًّا ، كنت أموت وحدي دون تقديم أعذار لم أستطع أن أفتح قلبي وأكب عنه حمله، أبت كرامتي الاعتراف، وأبت نفسي الارتماء بأحضان أمي لأخبرها أنها خدعتني، لأخبرها أن ابنتها الخلوقة قد ضعفت وأحبت ..
قد سقطت ، بكامل إرادتها، وأن الدنيا قد أوجعتني بقوة لم أعد أستطيع احتمالها، لم يكن بيدي ولا خاطري ولا أدري كيف سمحت باستسلام مبادئي لمجرد أني أحببت، أحببت يا أمي ولأول مرة، بعد أن وصلت ثلاثين عامًا وأنا زوجة بل لم أكن زوجة يا أمي، لا أدري ما أكونه أنا في هذا البيت، أنا كل شيء إلا زوجة، وكلما ازدادت أعمارنا ازداد ضعفنا وقلت مناعتنا، وضعف التئام جروحنا وبطؤ تعافينا من الكدمات ....
وأنا لم أملك أي حصانة لرده، كما لم أملك الحصانة للتعافي ، لا أبرء لنفسي ....
ولكن كم تمنيت أن زوجي حصن قلبي ضد نزلات الهواء المفاجئة، لِمَ تركتني سهلة ضعيفة وحيدة في هذا العالم؟...
ما أسبابك دلني، هل كنت مراهنًا نفسك على قوتي أم على عدم احتياجي؟...وقد افترقنا ولكني ما عدت، رحلت عني أشياء كثيرة معه، قد ترك وراءه ألمًا غيرني للأبد، كان النقطة التي حولتني وغيرت مسار أفكاري ومحت ما ظللت اؤمن وأدافع عنه طوال

حياتي، حطم عالمي المثالي الذي بنيت بالكامل، حطم كل شيء خلال رحيله.....
اكتشفت أن لا مجال للمثالية في عالم البشر، آمنت أننا جميعًا ضعفاء، وأن الجميع معرض للخطأ، بل معرض لأبعد خطأ قد يمر يومًا بباله ....

.....

(هنا) تجلس على فراشها متأملة فستان زفافها المعلق أمامها في انتظار أختها جميلة، تأخرت، وهى تشعر بالارتياح لتأخرها، ليست على عجلة من أمرها، لا تود الذهاب وتفكر جديًّا في التنحي عن هذه المهمة المقدسة .....

عندما رن هاتفها .....

_ألو

_صباح السكر ....

أتاها صوت يرفرف سعادة، لا تعلم لكم من الوقت ستدوم هذه السعادة المزعومة أو تدوم نبرتها قبل أن يمل و يتحول لنسخة مقيتة تشبه أزواج أخواتها .....

_صباح الخير ....

قالتها ببرود وهي تقاوم نفسها كي تظهر مهذبة معه.

_هل نمت جيدًا ....

ردت :

_حاولت.... لكن بالي مشغول.

فقال لها :

_بماذا؟....
لم تستطع (هنا) أن تكون بهذا الوضوح والصراحة فتخبره بما تدور به أفكارها، لا تمتلك الشجاعة الكافية لتقول أنها تود الهرب اليوم، لذلك قالت :
_أنت تعرف التجهيزات... أشعر أن كل شيء يتم في آخر لحظة، انشغلت كثيرًا الأيام الماضية، وهذا ما جعل النوم يجافيني.
فرد عليها :
_-أنا أيضًا لم أنم جيدًا طوال الليل .....
قالت:
_لماذا ...؟
فرد عليها :
_لا أدرى، لِمَ انتابني الشعور أنه كان ينقصني جزء من نفسي وسيكتمل اليوم معك؟..

يا الله، لا تعلم (هنا)هل تصدق كلامه أم تصدق الواقع الذي رأته بعينها، الواقع الذي اضطرها لفقدان إيمانها بالحب، هي لا تدري معنى الحب، ولا تدري معنى شعوره هذا وليس لديها أي رد على كلامه، ولا تملك تلك الكلمات التي يجب أن تقولها في هذا الموقف ... لا تملك إلا دمعة سقطت على خدها في صمت، قالت وصوتها يحاول الحفاظ على نبرته ....
_(أتمنى أن أسعدك) .....
سمعت صوت ضحكته واضحاً ثم قال :
_أنت مجنونة، مجرد وجودك سعادة في حد ذاتها ، دون بذل أي مجهود آخر.....
.....

كان هذا كافي بالنسبة لها، لا يمكنها سماع المزيد .....
هربت هنا من هذه المحادثة ومن مكالمته متحججة بأن (جميلة) على وشك الوصول ولابد لها من تجهيز نفسها، لكن شعور رهيب بالذنب أغرق كل كيانها ، تؤمن أنها ستفشل في كل الأحوال، حتى لو كان هو زوج مثالي، فهي ليست مثالية أبدًا بكل هذه الهواجس والتوجس والخوف والريبة، والتشاؤم ، لعلها تظلمه معها ولا تستحق هذا الحب والتفاني إن كان يوجد عنده بالفعل .....
ظلت الأفكار تدور في عقلها، وتتصارع، وتسقط داخل حفرة واحدة عميقة ...
فكرة واحدة ....
تغمرها بكل قوة ....
كان قرار واحد لابد منه ....
لابد لها من الإصرار ....
وعدم الرجعة ...
أمسكت هاتفها واتصلت بـ(جميلة) لتخبرها عما تنوي .....

.....
.....
....

(كيف واتتك الجرأة فتجعل من مشاعري حقل تجارب)....
دار هذا ببال(جميلة) وهي مازالت حبيسة سيارتها وسط الزحام:
(ترك هذا داخلي جرحًا ليس من السهل التحدث عنه أو ذكره ولا نسيانه، جرح وصمني بالمهانة أمام نفسي ....
لم أكن أستحق منك هذا كنت قد فقدت الأمل ورحل العمر وظننت أني لن أنل نصيبًا من الحب في هذه الحياة ، ثم ظهرت أنت بلسانك اللبق وأسلوبك المرسوم تصف لي كيف أن الله أعمى عني الرجال لأنه لا يستحقني غيرك ...
بعض العبارات التي تحفظها عن ظهر قلب من بعض الكتب والروايات، وأنا صدقتها. أو تعلم كنت قد صدقتك، غرقت بعسل بداية علاقة حب جديدة غير متوقعة، ليت كل العلاقات تقف عند البداية، تكون بدايات لاتنتهي، أو تعلم قد تهدينا البدايات السعادة، ولكن النهايات تعطي الحقيقة الواضحة العارية بلا منازع .....وقد كانت نهاية مفجعة .....
.....

نظرت لي بوجهها الملائكي وابتسامتها البريئة كطفلة تسألني عن مكتبك، أتذكر حديثها الودود وهى تحكي عن زوجها :
_(صباح الخير... فين مكتب أستاذ سراج؟)
قلت لها :

_(صباح النور .....تعالي سأوصلك ....)
فردت بتهذيب :
_شكرًا .....
مشيت إلى جوارها سعيدة بأن هناك فرصة لأن أراك في هذا الوقت، وكنت أتمنى أن أراك كل الوقت، كانت تشبهك وكنت سعيدة بأن أتقرب لشخص قريب منك، سعيدة بان أقترب أكثر إلى حياتك ، قلت لها ساعتها :
_لابد أنك أخته... تشبهينه كثيرًا ....
ابتسمت ضاحكة وقالت:
_عندك حق... كل الناس تخبرني ذلك، سبحان الله كل ثنائي يعشق بعضه ويتزوج لابد أن بيشبهوا بعضهم البعض بعد فترة...
.....
صدمت للحظة شلت ساقاي، وتوقفت عن السير وأنا أنظر إليها محملقة ، أذكر هذا الإحساس الذي انتابني جيدًا ، إنه هذا الإحساس بكم أني مغفلة وأن الكون كله من حولي يضحك من سذاجتي، قلبي كاد يتوقف، و الدم انسحب من عروقي، تاركًا وراءه شحوباًوبرودة وقشعريرة ، و عرقي كاد يغرقني وأنا أرد عليها :
_أنت زوجته؟ .....
ما هذه البرودة التي أشعرها بأطراف أصابعي، ما هذا التصارع داخل عقلي، هل أنا انتفض بالفعل، وخفت كثيراً أن تكشف أمري، فحاولت تغيير مسار الحديث كأن شيئًا لم يكن ثم أوصلتها إلى مكتبك وأصرت أن أبقى معها قليلًا أتحدث معها حتى تصل ...
_ أنا أول مرة أزوره في عمله، كان لدي فضول كبير أن أرى المكان الذي يقضي به معظم نهاره.
سألتها :

_ وهل أعجبك؟
_نعم، أعجبني المكان والصحبة، شكرا لأنك ساعدتني وجئت معي إلى هنا.
لم أفهم هل هي سخرية أم حقيقة، هل تعلم أو لا تعلم، هل ترى طعنتي وتحاول ردها لي في الخفاء، ما هذه السخرية القدرية العجيبة....
ابتسمت لها وأنا أحاول ألا أبدى أن تعبير على وجهي، فأكملت حديثها بكل حماس، لم تكف عن الحديث ولم يتوقف عقلي عن تفسير الكلمات، هل تتعمد ذلك أم أنها شخص لم يتحدث منذ فترة طويلة، هل هي شديدة الذكاء أم مجرد غبية وحيدة أخرى مثل الأخريات، تلك التي تحمل كل الأعباء وحدها لتستطيع أنت أن ترتاح، لتهيئ لك الوقت والراحة كي تستطيع خيانتها.
أنت أنشأت أسرة مناسبة للمجتمع ثم لم تكتفِ، أنت تطمع في المزيد، المزيد عن الحب .....
أما أنا.....
أنا الضعيفة الهشة الوحيدة الخائفة، كحال فتاة شرقية، تحاول أن تخوض الحياة، لكنها مواطن من الدرجة الدنيا، لا تستطيع أن تخوضها وحيدة .....
كنت أستند إلى نفسي كي لا يهزمني مرور الأيام، أحيط روحي بروحي، أحتمي من عيون المجتمع، وقررت أنت اقتحام كل هذا بلا سابق حساب لما يحدث بعد ذلك، فقط وجدتك جواري، تتمسك بي بشدة، تعيش في عالم موازٍ هناك لي وحدي، تتخفى منها وتهرب من مسؤولياتك هناك، وتنطلق تبني قصور خيالك معي أنا.
منذ انتقلت للعمل معنا قررت إقتحام حياتي، ورتبت مشاعري، غيرت كياني وسرقت قلبي، غيرت حلمي، ثم يفاجئني القدر أن لك زوجة،

أنك زوج، لك بيت لن يصبح ملكاً لي، والأدهى والأمر من كل ذلك قولك لي:
(أنا لا اؤمن بالضحايا في العلاقات، أنت أخذت السعادة والمشاعر التي طالما سعيت إليها، أنت أردت الحلم وسعيت له ولم أجبرك عليه)...
أى ضمير هذا الذي تقبلت به هذا الإحساس داخلك، وكيف واتتك الجرأة لمساومتي أن أبقى، أن هذا أفضل ما أستطيع الوصول إليه أني لن أكون زوجة أبدا في عمري هذا .....
أوجعتني ....
أوجعتني كثيرًا ...

.....

مرت الأيام ثقيلة متثاقلة بعد ذلك على نفس (شمس) يصبغها لون واحد، الأسود، فقط الأسود ، انكسر جزء عميق جدًّا في نفسها لم تدرِ ماهيته، لعلها نفسها هي ما انكسرت، فلم تجد لها بقية ولا طاقة لتشعر أنها موجودة .....

أيام ، أسابيع ، ثم شهور، وشعورها ذلك لا يخف ولا يهدأ، النهوض من فراشها صباحاً لمواجهة نفس الأحداث كل يوم أصبح عمل بطولي يستهلك منها الكثير من المجهود، تنهض لتكون أول فكرة تمر بخاطرها ..

"إنه يوم جديد آخر بدونه"

نعم تفقد الأشياء ألوانها برحيل من نحب، لا نشتهي أي شيء من بعدهم، كل ما يمر حولنا يصبح قاتم أسود كاحل اللون، حتى أشكالنا لا نراها في المرايا إلا هالات سوداء من الضعف والخزي والعار، ثم يتسلل هذا الكائن البغيض من الألم لاحتلال أجسادنا، يكبر ويترعرع عبر استهلاكنا ، لا أحد يعلم أبدًا أن مثل هذا الألم قد يكون موجودًا في هذه الحياة إلا حين يفقد حبيب.

أصبحت تتجنب كل المرايا، تغير طعم كل شيء في حياتها للأبد، لم تعد هي، تتساءل أي ذنب ارتكبته ليعاقبها الله به، تتساءل إن كان هذا لابد له أن يحدث تسديدًا لفاتورة زوجها الذي هتك ستر كل هذه البيوت ولابد أن يهتك الله روح بيته.....
ظلت تهرب من أفكارها إلى النوم، فأدمنت المنومات وأصبحت ضعيفة جدًّا، تحاصرها فكرة واحدة كراهية حنينها الشديد إليه ، كرهت نبض قلبها واحتضاره، كرهت نفسها وكل شيء آخر، إلا هو، لم تستطع أن تكرهه أبدا .....
واستسلمت لاكتئاب يفتك بنفسها وبكاء لا ينتهي، حزن على نفسها القديمة تلك التي ما عادت إليها بعد ما كان ، تلك التي غيرها للأبد و ابتئاس لأنها لم تملك القوة لتقود ثورتها على نفسها، لتنتفض وتمنع كل هذا من البداية، تبكي لتطهر روحها وقلبها من ذنبه، وتبكي حين تتمنى أن تراه يوماً صدفة أو تسمع صوته في اتصال خاطئ، تبكي من جزعها أنه بكل هذه القوة والثبات في البعاد عنها.. .
وتعلمت دروسًا لم تكن في حسبانها ..
كانت هذه هي الضربة القاسمة التي كرهت نفسها بعدها كل الرجال إلى الأبد ...
تمسك ورقا وقلماً تبث إليهم كل أحزانها ثم تحرقها :

“

حبيبي... مازلت أذكر كلماتك ....

(أنت كتلة من المشاعر) كيف استطعت رؤية ما لم يره العالم كله من حولي؟ وكيف شعرت بي في لحظات معدودة ولم يشعر بي من قضيت معه سنين طويلة من العمر ...
(كوني على أرضك وتحت سمائي) أعدني من سمائك حبيبي، أصبحت عالقة عندك روحًا وكيانًا، ومجرد جسد منهك متألم وحيد على أرضى، أعد إلي روحي، وارحل عن أفكاري....
(لا تسألي للحب عن أسباب، نحن فقط نضعف وبمنتهى القوة)
ها أنت أضعفتني وأنهكتني، وبمنتهى القوة، وبلا أسباب كافية، وما أضعفني أكثر شعور الوحدة والفراغ، مكانك الخالي الذي تركته خلفك، لم أكن أعلم أني وحيدة جدًّا إلى هذا الحد، كنت اعتدت أن أكون وحدي، حتى شغلت أنت فراغ روحي الذي لم ألحظه من قبل، تذوق حلاوة وجودك جعلني أعلم مدى مرارة وحدتي....أنا .... أنا وحيدة جدًّا .
كنت أجمل أحساس وأصبح الإحساس بك يؤلمني، أنت يا حبيبي نقطة ضعفي الوحيدة، النقطة السوداء الوحيدة التي سرت في دمي النقي، وأنت يا حبيبي سببًا لغروبي للأبد، غروبي أنا، غروب (شمس).

.....
“

مازال شوقي يهزمني .....
أين أنت يا حبيبي؟ .....
أين صوتك ....أين شوقك؟.....
كيف قلبك .....كيف سهرك؟...

مازال قلبي يغلبني.....
أين من كان حبيبي؟....
في بعادك .....كيف حالك؟....
هل أزورك في منامك؟ !!!
كيف تقذفني سهامك؟....
ولا يلحقني سلامك.....

مازال ما بي يقتلني...
أين أنت يا حبيبي؟.....
هل مازلت لديك حلم؟ ....
في ليالي البرد سلم ...
هل بعادي عنك ظلم ....
أم تعامي بغير علم .....
وأين أنت يا حبيبي؟ .....
أين من كان صديقي؟ .....
أين من كان رفيقي؟ ....
أم ابتليت الحب فيك.....
حلم غر .....لست حقيقي

.....

.....

يتزوجون بصوت عقولهم، ولكن بقلوب لم تكتمل بعد و لم تتعود الاحتمال، فلا على الزواج حصل ولا على الحب حصل، ليصبح الرجال في الشرق وجهين من الفشل لإنسان واحد.....
.....
في الصباح التالي لم ترد (جميلة) على اتصال(سراج) ، لم تهتم ،و لم تحتمل فكرة وجود شخص مثله جوارها بنفس العالم، ذلك الاتصال مهما كان سببه ليس أمر تستحق أن تقطع بسببه أغنيتها المفضلة في منتصفها، عرفت أنها لم تحبه يوماً فقط كانت تحاول التشبث بآخر فرصها في الحب، وفي الحياة ، كانت غارقة في النهر تحاول الوصول لعصا تنجيها ، فتشبثت بثعبان....
بعد ما حدث لم تعد تبالي جميلة بفكرة الزواج ككل ، وأصبحت ترى أغلب الرجال كائنات ضئيلة في نظرها .....
عندما رن هاتفها قطع عليها شلال أفكارها وسط الزحام، فالتقطت الهاتف وردت على أختها :
_ألو، (هنا) حبيبتي.... أعتذر عن التأخير؛ إنه زحام غير متوقع بالطريق.
لكن جاءها صوت باكي عبر الهاتف ....
_.....
صدمت (جميلة) للحظة مما تسمعه أذنيها وصرخت بها قائلة :
_(هنا) هل جننتي؟.... ماذا حدث؟.....
لكن انقطع الاتصال من طرف (هنا) فظلت (جميلة) تنادي عليها :
_(هنا)..(هنا)...أجيبي ..الووووووو ...الووووووووووو
ظلت تصرخ لحظات .....

قبل أن تفقد الأمل في أن تعاود الرد عليها ...

في الجوار كانت (شمس) تستعد مع زوجها للذهاب إلى أحد المحلات لتشتري معه رابطة عنق مناسبة، داعية الله أن رؤية الناس والشوارع تخفف عنها حدة اكتئابها الذي طال حتى تمنت رحيله .....

الاكتئاب ...

لعله غضب قوي داخلها لم يتم التعبير عنه، أو شعور قوي بالذنب وتأنيب الحال، كثير من الناس ينتابهم الشعور بالحزن أو الإحباط في بعض الأحيان، ولكن بالنسبة للبعض الآخر، فإن هذا الشعور لا يختفي بسهولة، مزاج متعكر، فقدان الرغبة والابتهاج، يستمر طويلًا، عادة يكون لديهم حزن شديد، فقدان للعاطفة ، و لديهم شعور ورغبة أقل في الأشياء التي تكون عادة مدعاة البهجة ....

والاكتئاب له صفة واحدة رئيسية وهي؛ أنه يجب أن يكون المرء على حذر عندما يفكر فيما يمكن عمله لهزيمته، فالاكتئاب بإمكانه أن يغذي نفسه، فقد ظل يتغذى ويترعرع في محاولاتها مساعدة نفسها بنفسها للخروج منه ، هذه المحاولات لإرضاء من حولها ودفن مشاكلها أو محاولة تجاهلها أو عدم الاعتراف بحاجتها وفقدها، محاولات إقناع الناس أنها على ما يرام، أو تخطي همها باعتباره غير موجود ....

محاولات لا تجدي نفعًا، بل تسببت بمزيد من تقلبات المزاج تظهر واضحة جلية فجأة بدون سببٍ يذكر....

هذا المزيج من مشاعر الحزن، والوحدة، والشعور بقلة الحيلة والعجز عن مواجهة الحياة، والإجهاد العقلي والجسدي والشعور بالذنب والضعف والقلق والخوف وهبوط النفس، عدم القدرة على إظهار أو تقبل عواطف الآخرين ومن الآخرين.....

كان الأجدى أن تواجه همها وتتحدث عنه، تخرج كل ما يفيض به خاطرها من مشاعر أو هواجس، لكن من دواعي السخرية أن هذه الفضفضة تكون أسهل مع غريب لا تعرفه ، تعلم أنها لن تراه أبدًا أو تعلم حكمه عليها، أما (شمس) ، فمن يمكن لـها أن تتحدث إليه أو تحدثه عن شعورها دون خوف من نقد أو أحكام ، أمام من يمكنها أن تعري مشاعر خطيئتها تلك، وقد أورثها ذلك المزيد والمزيد من الغضب الذي لا يمكنها التخلص منه ، لا تستطيع أن تبوح أو تتحدث وعليها أن تتظاهر طوال الوقت.

الاكتئاب....

ذلك اللعين، (مرض الجسم الكلي) يصيبنا نفسًا وجسدًا وروحًا، وجدت (شمس) نفسها دائماً وحدها في مواجهتها له؛ لا تستطيع التعبير عن غضبها أو البوح بما ينكره عليها المجتمع من مشاعر، و علمت أن لا علاج يجدي نفعًا كوجود شخص في حياتها يحبها ويساعدها ويساندها، هذا هو السبب الرئيسي لكونه مرض العصر فقدنا الإحساس والدعم لبعضنا، فقدنا الحب .....

لم تكن (شمس) تستطيع أن تتحدث أو تبوح أو تتألم إلا إلى الله في دعائها الباكي..... لعله يرضى .....

.....

(أنا غاضبة جدًّا، غاضبة من كل ما حولي، غاضبة من ذلك الرجل الذي يسير جواري، غاضبة من نفسي من ضعفي ورغباتي، غاضبة من أهلي، لم ربيتمونا بكل هذه الأخلاق فيكاد يقتلني ضميري ألمًا، غاضبة من مجتمع أباح للرجل كل شيء وحكم على المرأة في كل شيء ...
والله عدل شرع نفس العقاب للرجل والمرأة، شعوري قوي بأن خيانة الروح أقوى من خيانة الجسد، أنا أحببت، خيانتي كانت أقوى وأمر، رغم أن الله يعاقب خيانة الجسد لا خيانة الروح، سبحانك ربي وكأنك تعلم أن أرواحنا لا سلطان عليها في هواها، وأن إرادتنا لا تظهر جلية إلا في فعل ارتكبناه ...)

....
كانت (شمس) تعلم أن ذنب زوجها مهما كبر وعظم فلن يلومه أحد، بل سيطالبها الجميع بالاهتمام بنفسها وزوجها وقد يتهمونها بالتقصير كما اتهمها تمامًا(أنها ليست امرأة كافية له).
أما ذنبها حتى وإن كان ذنب قلب وليس جسد، حتى وإن كان بغير إرادتها ولم تملك عليه سلطان، فسيحاكمها كل العالم، قد تخسر كل شيء في لحظةٍ واحدة بداية من أمها وأبيها، مرورًا بزوجها وعلى رأس الخسارة سيكون أبناؤها ....
تلوم نفسها بقوة، تلوم عقلها وعاطفتها، وغباءها الشديد ، وشعورها بالغضب، يسكن أحشاءها ويؤلمها ولايستكين ...

نظر إليها مبتسمًا محاولًا كسر هذا الشعور الصامت الذي ابتلعهم، وهم ينزلون سوياً درجات السلم وقال لها محاولًا أن يكون ودودًا:

_شمس... ما رأيك لو نمشي قليلًا ونترك السيارة... لنعتبرها نزهة صغيرة.... نحن لم نمشي سوياً ولم نتحدث منذ فترة...
نظرت (شمس) إليه متعجبة ، فلم يسبق له هذه المحاولة دون طلب وإلحاح طويل منها :
_حسنًا... أنا أيضًا أحب أن أمشي ...
أخذ يدها بين يديه ومشي معها، شعرت يبحث عنها بين أصابعه، لعلها تعود، نظرت له (شمس) نظرة عتاب سريعة ثم أشاحت بوجهها إلى الاتجاه الآخر، وهي تسخر داخلها..

.....
(تمسك يدي ....
يا لغرابة القدر وسخريته ....
تمسك بيدي الآن، ألم تدر عزيزي، كم بحثت عن يدك لأتشبث بها، فلم أجدها أبدًا هل تعلم بأنه لم يعد يعنيني أو يهمني إمساك يدي، ألا تدري أن قبضة يدك ما عادت تعني لي الأمان، تلهب أصابعي كالجمر، هل تفهم ما يعنيه فقدان الأمان للمرأة؟!!
أن تعيش نصف حياة، وتشعر نصف شعور، ولا أرض ثابتة لتقف عليها ، كيف لي ألا أخاف منك ومن قبضتك الآن ...)

.....
كانت تحاول بكل الطرق، أن تفلت من قبضته، تبحث عن منديل في حقيبتها، ترتدي نضارتها الشمسية، أي شيء، المهم أن تفلت من بين أصابعه ...
لماذالا تأتينا الأشياء إلا بعد أن نزهدها ، كم كانت تحلم بمثل هذه اللحظات من قبل، والآن ما عادت تريده تكليف نفسه أي مجهود

للاقتراب منها أو الخوف من رحيلها ، هي لن ترحل ، هي رحلت بالفعل ولن تعود ، لكنها موجودة معه هنا معه جسداً بلا روح لخدمته في كل الأحوال ....
فقدت الأشياء قيمتها في قبضة يده، وتتمنى أن يتوقف عن المحاولة ، هو من أفسد كل شيء منذ البداية...
قال لها :
_تنظرين شاردة في وجوه المارة ولا تسمعين ما أقوله....
كان ينظر إليها بين الحين والحين في التفاتة خاطفة، لا يقوى على التطلع إليها طويلًا، يعلم أنه آلمها ، يشعر بها، يراها تتألم، وهي لا تدري أنه يتألم هو الآخر ...
تظنه لا يبالي، ولكن بداخله عميقاً جزء يتمنى عودتها، لذلك هو يبالي وكذلك يتألم لأن كل المنافذ موصودة بالرفض، تغيرت(شمس) ...
_ماذا ؟...ماذا قلت ؟...
ردت عليه، فقال لها :
_أنت شاردة .....
ابتسمت مجاهدة كآبتها وهي تقول :
_فقط متعبة من تجهيزات الفرح في الأيام الماضية.

نتحدث كثيرًا عن أمور مختلفة، لنخفي الحقيقة ، نخفيها لأن الحديث عما في قلوبنا ليس سهلًا يسيرًا ....
.....
ظلت تمشي جوار زوجها يتحدث ولا تسمع معظم حديثه، متأملة وجوه المارة والعيون تمر بها ، تبحث عن وجهًا يشبهها، تتمنى أنها ليست وحيدة ، لعل كل الوجوه تحمل بؤسها الخاص، مشروعها

الخاص، أرضها الخاصة بما خاضت من معارك وأحلام وخذلان وسقوط، لعل الكل موجوع من أمر ما والكل لديه ما يحمله ويخفيه خلف عيون تشبه جميعها الزجاج المصقول ...

صوت داخل أعماقها يتحدث ؛ طغى على صوت زوجها تمامًا، عقلها الذي اختفى منذ فترة يأتي من بعيد ضعيفًا يحاول التشبث بالحياة، ليتها لا تتخاذل أكثر من هذا ...

يا (شمس) .....

للقلب أحكام وأوامر ، أن تقعي بالحب ليس بيدك، ولكن الانتفاضة والخلاص ما زالت بيدك، وإن استلزم الأمر أن تتمردي على ذاتك، أن تقتلي وتبعثي من جديد ...

ليس كل الحب يا شمس .....

ليس كل الحب ...

فبعضه معضلة، وبعضه شقاق، وبعضه أسروبعضه لمن لا يستحق، أو لمن لا نعرفه ولا نراه حقًّا، فقط صنمًا نصنعه ونجسده ونجيد صناعته ثم نعبده، فلا نستطيع إلا أن نقع في الشرك، وقعت في الشرك وعليك إنقاذ حالك الآن يا (شمس)، صنعت صنمًا من أوهامك وصرت عبدًا في معبده، وآن الأوان لكسر صنمك وتحطيم معبدك، فليس كل الحب جميلًا ، بعضه ظلام بلا نور، ضلال بلا أمل، انكسار بلا استواء، صقيع بلا احتواء.....

لا تصنعي للحب أشباحًا، فتضيعي في عالم لا جدران له ولا أبعاد ولا حدود، لا تُأسري في الوسط المميت الذي لا وصول منه ولا رجوع.....

هنا صار الصوت أكثر قوة وشجاعة وتحدي وثقة...

ياااااااااا(شمس) ....

إن الصدمات هي ما تصنعك، تجعلك أكثر حكمة، و العثرات تجعلك أكثر حذرًاو والكسر يجب احتواءه بين جنبات أضلعك ، لذا اشكري الماضي على المستقبل الأفضل، لابد أن يصبح مستقبلك أفضل، لأن أمرك بيدك، لا بأس أن تكوني أنانية بعض الوقت وتحاربي من أجلك أولاً، أنت قضيتك الأولى التي لا تقبل خسارة، إذا خسرت نفسك، ستخسرين باقي زوايا حياتك تباعًا....

ثم ازداد قوة وقوة داخلها.... يزلزلها من أعماقها .....
ياا ((((((شمس))))))
إن الفشل ليس النهاية ، بل هو الدرس المستفاد ، يعطي حكمة أكثر مما يعطي النجاح، و الطريق المتعثر يصقل داخلك أكثر من الطريق الممهد، والتعثر والسقوط أحيانًا لا بأس به ؛ فلابد للشمس أن تغيب كي تشرق يومًا جديدًا، انهي غيابك و اشرقي من جديد
.....
صار الصوت قويًّا عنيفًا عاليًا ...
.يغزو عقلها تمامًا ..
ويزلزل كيانها الداخلي ..
ويهز أعماقها بكل قوة ....
.داخل جسد صامت ساكن كصنم الحجارة..
ياااااااا..... .((((((((((يا شمس))))))))))
أما آن لشمس أن تشرق يومًا جديدًا مختلفًا تستحقه، كوني قوية، كوني قوية لأجلك أنت أولا، لا تثيري شفقة من حولك أنت تستحقي الحب، كامل الحب، بلا نقص ولا شفقة...
.....

ثم تحول هادئًا ناعمًا واثقًا جميلًا متسللًا إلى أقصى أعماقها، وهي تمشي تنظر للوجوه حولها وابتسامتها تتسع ثقة وطمأنينة، صوتاً ودودًا يحتل كل أوصلها حتى اقشعر له بدنها كله..

.....

يا (شمس) كوني شمسًا، أشعي ضوئك بذاتك، يا (شمس) لا تحتاجي لرجل يهبك ضوءًا ، لا تعكسي ضوءًا غير ضوئك، فأنت شمس ، كوني شمسًا ..

التذلل في طلب العواطف مهانة، وأنت لا يليق بك إلا حبًّا يملأه العزة والكرامة، والكرامة عدوها الاحتياج ولا يليق بغالية، تعرفي على نفسك جيدًا، تعارفًا جديدًا يملؤه الحب والمودة ووالثقة، وحددي أهدافك جيدًا...

إن أسوأ ما تقدميه لنفسك هو الاستسلام، وأفضل ما تقدمي لنفسك هو تحويل كسرك وهمك وألمك إلى تحدٍّ، اجبري كسرك بنفسك، أحبي نفسك أولًا وسيصير كل شيء بعده على ما يرام، أفضل انتقام من هذه الحياة، هو الإشراق من جديد والنجاح بقوة يا (شمس).

.....

كأنما غُسلت روحها في معركة قوية خفيفة داخلها، زُلزل كيانها وعقلها وكل أفكارها، طاحت مدنًا داخلها وثارت شعوبًا وهي تسير كائن ساكن جامد كصنمٍ يحلق في الفراغ ...

في لا شيء.....

أكان هذا صوتًا داخليًّا... أم ملكًا بعثه لها الله ....

لا تدري ، لكنها على يقين تام أنه كان لابد من الموت الكامل كي تبعث من جديد، تُنفخ داخلها روحاً جديدة وفهمت لِمَ قابلته، لو لم تقابله

لظلت عالقة في الوسط المميت لسكرات الموت التي خلفها فيها زوجها إلى الأبد، عالقة إلى أن تنتهي بروح متخاذلة متوارية ضعيفة، ولكن بعثه الله ليزهق روحها زهقًا كاملًا ، لتخرج آخر أنفاسها، وينفخ الله داخلها روحًا جديدة ...

نظر إليها زوجها، وصوت أفكاره ينادى:
"(شمس).....ما بالك لا تردي ولا تسمعي..."
كان يردد اسمها بداخله، نفس الاسم ولكن أصبح له مذاقًا آخر مختلف، تغيرت شمس وكأنها شخصًا آخر جديد في حياته ....
كان في الأيام الأخيرة كأنه يراها لأول مرة ...
كأنه لم يرها أو لم تكن موجودة من قبل ....

.....

(هنا) تجلس جوار أختها (نور) المريضة بعد حادثة الإجهاض، تتحدث إليها وتتسامر معها محاولة التخفيف عن آلامها وأحزانها البادية الواضحة، تعلم أن سبب حزنها الأساسي ليس الإجهاض بقدر ما هو خيبة أملها في زوجها وعدم إحساسه بها، حسرة على اختيارها وحياتها البائسة

.....

_(نور) حبيبتي أنا واثقة أن زوجك يفتقدك .....

ابتسمت (نور) ساخرة، وقالت :

_لا أعتقد يا (هنا) هو يدبر أموره جيداً .....

قالتها بثقة مصبوغة بالوجع، فردت (هنا) سريعًا لتنفض عنها هذه الأفكار ...
-لا حبيبتي.... الرجل يشتاق زوجته وحنانها وعاطفتها.
ابتسمت مرة أخرى بمزيد من السخرية وقالت :
- تعتقدي رجلًا لا يلتقي زوجته بالأسابيع الطويلة... قد التحق بالدير... سيكون راهبًا ويزهد النساء!!....
صمتت لحظة زفرت خلالها زفرة حارة ثم أكملت قائلة :
هل تعلمين يا (هنا) زوجي أناني لا ينسي نفسه ومزاجه ولا يصبر على الحرمان، يعوض نفسه، هو حتى لا يسأل أو يهتم بأن تعاني زوجته البعاد والوحدة والاشتياق، طالما يجد غايته، تعتقدي في بعدى عن المنزل لم تمر زائرة علي حياته، يا (هنا)....لا تكوني بكل هذه البراءة والسذاجة.
دمعت عيناها وهي ترى نظرة (هنا) وأكملت قائلة :
تعتقدي أني أثق بوفائه؟ أو أن خيانته تؤلمني؟ فليذهب كل الرجال إلى الجحيم، لا أرى منه سوى الويل...
قالت لها (هنا) :
- يا (نور) أصبحت زوايا رؤيتك سوداء أكثر من اللازم، لا أعتقد أن كل الرجال هكذا .
نظرت إليها (نور) بكل ثقة وقالت :
_(هنا) هل قرأت الأوديسة من قبل؟ الملحمة كتبها رجل يتمتع بفكر رجولي فطري بحت، تحكي عن قصة بنلوب زوجة أوديسيوس، بعض النبلاء حاصروا قصرها، وطالبوها بالزواج من أحدهم، وعرضوا الكثير عليها، أقنعتهم بالانتظار حتى تنتهي من خياطة ثوب العرس، كانت تخيطه في النهار وفي المساء تقوم بفكه، منتظرة عودة زوجها أوديسيوس. ....

ابتسمت (نور) بتهكم ثم أكملت بصوتٍ ساخر :
رجع أوديسيوس، وجمع النبلاء إلى وليمة وقتلهم بقوس أخذه يومها هدية من زوجته، هذه الملحمة عبارة عن عرض كامل للأمنية الذكورية أن الرجل يغيب في حياته ومشاغله واهتماماته ، حتى إن كانت بلا أهمية حقيقية ، أن يغيب وينساها، لكنه قد يعود ويكافئ المرأة الساذجة الغبية التي انتظرته وأهدرت سنين عمرها في انتظار عودته، بوجوده، لأن مجرد وجوده هو منتهى الغايات لامرأة تحبه، هو المكافأة، بعد ما ضاع منها جهدها وصحتها وحياتها في المحافظة على أولاده وبيته وشرفه، بعد ما صارعت وحيدة وحاربت لتحمي نفسها من الرجال، رجوعه يكون مكافأتها ...
ظلت(هنا) تنظر إليها صامتة ، لا تجد ما تقول ، تتساءل هل (نور) محقة بكل كلمة قالتها .....
لكن(نور) أكملت حديثها قائلة ....
_ يا (هنا) كل رجل حاول القرب منها له امرأة تركها ليجول ويصول وهي كالغبية تحمي نفسها من الطامعين، هل كل النساء لديهم القدرة أن يكونوا ك (بنلوب)؟؟؟ أنا لا أعتقد أبدًا ، الحقيقة أن الاستسلام قد يكون الأغلب من الصبر وقوة التحمل ، إنها دائرة شديدة التعقيد لا يتخلى عنها الرجل برغم كل مصائبها، ولا حل لها إلا التمسك بالدين والأخلاق، لو تمسك كل رجل بتعاليم دينه ما عانت النساء.
ردت عليها (هنا) قائلة :
_يااااه يا (نور) ...كل هذا بداخلك ....
فقالت لها :
_إنها الحقيقة.... نموذج المرأة التي تقدم عمرها قربانًا لرجل لا يقدم بالمقابل سوى وعود لا تنفذ، أصبح الأصل والواجب وما يتوقعه منها الناس دون كللٍ منها أو ملل....

تذكرت(هنا) كل هذا الحديث وهي تغلق مكالمتها مع (جميلة)، جال بخاطرها تلك المرارة التي سمعتها في صوت أختها ورأتها جلية في نظرتها وهى تجلس وحيدة باكية في حجرتها كمن ينتظر حكمًا بالإعدام وليس زفافًا، تتوسل وتدعو :
(ياالله،.... ألهمني من عندك القرار)

تتذكر أختها (شمس) عندما كانت تتحدث بهدوء ولطف مبالغ به مع زوجها، رغم ما حدث بينهما...
فسألتها؛ كيف لها هذا الصبر؟
ضحكت (شمس) ساخرة وقالت لها:
-حبيبتي (هنا).... الرجل الذي تتحدث إليه زوجته بلطفٍ وأدبٍ وموافقة ومسايرة لكل آرائه بصورة مبالغ فيها، هي امرأة لم تعد تهتم....
ما فهمته من حديثها أن قلب (شمس) ليس متعلقًا بزوجها حتى يكون هناك ما يستحق الكلام أو الجدال، ما بينهما هادئ ساكن لا يتحرك، كانتا (شمس ونور) لهما فضل كبير في موروثات (هنا) السيئة عن عالم الرجال..
تتذكر جلساتهم أمام التلفاز ومشاهدة تلك المسلسلات التركية، هي متأكدة أنها مجرد صناعة ذكورية لبيع الأوهام، لذلك لم تكن تتعلق أو تُشد إلى الأحداث مثلهما ، كان يظهر في عيونهما التأثر الشديد، تلك العيون التي لم تمتلئ بالحب والعاطفة رغم زواجهما ، تجلسان غارقتان في سباتٍ شتوي؛ كأن على رأسيهما الطير، غارقتان في الأحلام، وعند انتهاء ذلك المسلسل ؛ يكن كمن ماتت لهن رفيقة ، ينعيا المسلسل كابن لهن ....

.....
الصورة الآن أمام (هنا) ضبابية موجوعة مذبذبة ، ليست واثقة أين الخطأ وأين الصواب، وما الحقيقة وراء ما أصبحت تشعره داخلها!!
.....

.....

في تلك اللحظة أقنعها زوجها بالذهاب إلى أحد (الكافيهات) القريبة لتناول القهوة قبل العودة إلى منزل العائلة، وهو يخبرها :
- لكنك لن تشربي قهوة اليوم... وجهك شاحب أكثر من اللازم ...
و(شمس) تنظر إليه وهي تتعجب بداخلها..
(أتخاف عليّ ، أي خوف هذا دفعك لقتلي مرارًا وتكرارًا بكل برود وإصرار، أنظر إليك وأنا أعلم ما تشعر، ينهار عالمك يا عزيزي، أنت تحتاج شمس، كما يحتاج السيد دائمًا إلى عبده الأسود، انسحابي بمنتهى الثبات من حياتك ترك فراغًا لم تعتاده ، ولكن آن الأوان يا عزيزي أن تعتمد على نفسك، بالغت في تدليلك، وما عادت لدي أي طاقة لهذا بعد الآن، أحتاج للنوم والراحة والابتعاد، ليس عليّ أن أقضي يومي في محرابك، اهتم بحياتك، اهتم أنت ورتب حياتك)

نظر لها زوجها، يتمنى أن تعلم ما يشعره وأن يعلم ما تفكر به ، يحتاج إليها، احتياج طفلًا غابت عنه أمه طويلًا، اشتياق صائم إلى موعد عيده، لوعة يعقوب لغياب يوسف، انتظار ليل طويل لشروق نوره، يتألم في غيابها ويتألم لها ويتألم لأنه سبب ألمها وغيابها ...
عندما جلسا إلى الطاولة، قال لها بصوتٍ خفيضٍ ضعيف:
_(شمس)....تكلمي.... لم كل هذا الصمت؟... أنت صامتة منذ فترة طويلة لا تنظري لي ولا تريني...ألن يلين قلبك؟...
ظلت تنظر له بعيون يملؤها الشك والريبة والحزن والألم ثم قالت ببرود :
_أنا قررت حضور حصص لتعليم صناعة الأكسسوار ...سأبدأ بها من أول الأسبوع ..

ظهر على وجهه آثار، الصدمة فقال لها متسائلاً بريبة :
_والأولاد؟! ....
ردت عليه بنفس البرود :
_ سيذهبون إلى الحضانة أو ابقَ معهم أنت....
فقال:
_هذا ليس وقت مناسب؛ البيت يحتاج لك،..... وأولادك؟
ردت عليه :
_أريد العمل ....
علا صوته قليلًا وهو يقول :
_لماذا؟!!.... ماذا ينقصك؟ ... ما السبب؟
فقالت :
_ينقصني الكثير، ينقصني الشغف... الفرحة... المتعة... ينقصني أنا....
كان ينظر إليها بغضبه المعتاد وهو يتساءل لماذا دائمًا تنقلب الأمور بينهما، ولا يخرج الكلام بسلام؟!
عليه أن يتمالك نفسه قليلا، ويكتسب ثقتها بإعطائها الأمان ليفهم ما تخطط له ثم يكون حاسمًا في اختياره وما يريد، أو أن يتحمل غضبها قليلًا حتى تمر تلك الأزمة، أو يخسرها في قتال يتضح له أنه لن ينتهي ببساطة، وهوتجنب فكرة خسارتها .....
أما هي فلم تعد تبالي بغضبه كما الماضي، أكملت حديثها بثبات وهي تنظر لعينيه مباشرة ....
_ لم يكن هذا طلبًا....كان تبليغًا...
قطب جبينه وزم شفتيه ثم نظر إليها وقال :
_ورأيي؟!.....
فردت عليه :

_لم أطلب منك رأيًا... هذا قرار شخصي يخصني أنا.... لا يعنيكم.

رجعت بظهرها إلى الوراء بكل ثبات كي ترى صورة كاملة له، أعجبتها الصدمة وانعكاسها على وجهه وعينيه، أثارت داخلها نشوى أعجبتها، فظهرت شبه ابتسامة تظلل وجهها الشاحب وعيونها الذابلة، وهي تقول في نفسها

.....

(أعلم أنك لم تعتد مني القوة والثقة، وأعلم أنك ترى أني تغيرت، تلك شبه الابتسامة التي تراها على وجهي، لم تكن سعادة فقط بل كان انتصارًا أيضًا ، لم يكن انتصاري عليك، لم أسع يومًا للانتصار عليك، أنا لا أحاربك ، أنا الآن أنتصر على نفسي، في قمة انتصاري على ذاتي، كم كنت أخاف مواجهتك، أخاف فقدك كثيرًا، الآن أنا أواجهك ولا يعنيني رحيلك، الآن أنا انتصرت على خوفي، خوفي فيك ومنك وإليك.....

هل تعلم لماذا؟...لأني اكتشفت أخيرًا أني لم أملكك يومًا يا عزيزي، حتى يشقيني رحيلك ، لم تكن ولن تكون ملكي، ارحل إذا شئت، فالحياة لا تتوقف على أحد والشمس ستظل تشرق مهما رحل من رحل.....)

.....

قال لها، وهو يحاول أن يعتدل بنبرة صوته، يحاول أن يقتل الغضب والتوتر بداخله ويتمسك ببعض التحكم في انفعاله :

_كيف اتخذتي قرارًا دون الرجوع إليّ... أين تدينك؟... أين ما تعلمتيه وتربيتي عليه ؟... لابد من الاسئذاااااا.....لم تدعه يكمل جملته ....

قاطعته بقوة وحسم، ضاربة المنضدة بقبضة بيدها، مقطبة جبينها، والغضب يغطي تفاصيل ملامحها، قائلة :
_لا تتكلم عن الدين الآن.... الدين أنت لا تستعمله في حياتك إلا لإخضاعي... الدين لا أرى منه فيك سوى حقوق الزوج بل وأكثر من حقه...
أشاحت بنظرها في الجهة الأخرى بكل غضبٍ تحاول تذكر متي آخر مرة رأته يسجد لله في صلاة، يستخدم الدين كوسيلةٍ للوصول إلى ما يطيب له هواك فقط،
نظر إليها لا يصدق، من هي؟
وأين (شمس) ؟.....
من هذه التي تجلس أمامه.....
كيف تحولت لهذه الكتلة من الغضب والألم، أصبح لا يدري؛ أين ضاعت منه زوجته!...
صوتها بعد أن بدأ يعلو قليلا، التفتت إليها بعض الرؤوس، شعرت بالخجل قليلًا ، ولكن ما عاد يعنيها رأي الناس ....
ماذا أفادها خوفها من كلام الناس؟! ....
خوفها من رأي الناس، دمر حياتها خوفها هذا من كلام الناس، ولم يعد بها بقية لتتحمل الناس ....
رن هاتفها.... أمسكته .....
_الووو.....نعم بابا ....ماذا؟ ....ماذا؟ .....ماذا؟ .....
كل أنواع الصدمات رقصت على وجهها في لحظة واحدة وهي تقول لزوجها بصوت ممتلئ بالصدمة والقلق ...
_ يجب أن أعود للمنزل حالًا.....
وهمت مسرعة.....

.....

.....

(الخيانة ذلك الخنجر الذي يتلقاه المرء من أمامه من أقرب الناس لقلبه)

بعد عدة أيام من حديثها مع (نور) جلست (هنا) مع أبيها تتحدث أرادت أن تفهم عالم الرجال الذي أفسدته عليها أخواتها، سألت أباها:
_يا أبي، ما الفرق في العاطفة بين عالم الرجال والنساء؟ ....
ضحك أبوها متعجبًا السؤال، أو غير متوقعه، ثم قال لها:
_ يا حبيبتي، تركيبة الرجل في الحب غير تركيبة المرأة؛ الرجل ميالًا بطبعه للتنويع؛ سر قلبه في عينيه، لذلك هو ببساطة ضعيف جدًّا أمام الإغراء وأمام الجمال والفتنة؛ بينما المرأة أكثر تحرجًا وحياءً في ذلك من ناحية، وعاطفتها قد تجعلها ترى بقلبها ما لا تراه بعينيها...
اعتدل في جلسته وبدأ صوته يبدو أكثر جدية وهو ينظر إلى عينيها مباشرة ويكمل حديثه :
-يا (هنا) مكان العاطفة عند الرجل في غريزته وهو أوسع ويحتمل كل النساء؛ بينما المرأة مكان عاطفتها قلبها وهو الأضيق ولا يتسع عادة إلا لواحدٍ فقط.....
تعجبت (هنا) من كلامه، لم تتخيل أن يكون أباها بهذا الوضوح؛ توقعت أن يجمل الحقيقة قليلًا، استغلت فرصة هذه الجلسة شديدة الوضوح لتسأله:
- يا أبي.... لماذا يخون الرجل؟
- يا (هنا)... قد يكون سبب الخيانة في الرجل أو المرأة، فأما إن كان من المرأة ولم تحاول إصلاح ذلك، فلا مبرر للخيانة وقد شرع الله له الزواج بأربع، وأما إن كان من الرجل، فبعض الرجال امرأة واحدة

لا تكفيه، لا يتوارى للبحث عن امرأة أخرى لينعش مشاعره أو رجولته التي يعتقد أنه يفقدها مع امرأة واحدة، يبحث عن المغامرة والمشاعر المتجددة، وبنفس الوقت لا يستطيع التخلي عن هذه المرأة التي رغم خيانته لها يحبها، ويهتم بشأنها، ولوازمها دون أن ينقصها شيء.....

دهشت (هنا) من الفكرة، أمرهم عجيب هؤلاء الرجال؛ قالت لأباها:

_ربما في المستقبل يجب أن أقسم نفسي إلى امرأتين؛ كل واحده بشخصية خاصة، حتى لا يخونني زوجي ويخدعني، هل تعلم يا أبي، بل أعتقد أنه يخون نفسه ويخدعها فالخيانة مهما اختلفت أطوارها، فهي تدل على شخص غير سوي هي أولاً وأخيراً جريمة أخلاقيه بغض النظر عن الأسباب؛ سواء من طرف الرجل أم المرأة.

ابتسم أبوها وهو يعلم ما تشعر به الآن من خوفٍ وقلق، فابتسم ابتسامة طمأنينة لطمأنتها....:

_صدقت عزيزتي في كل كلمة، هو خادع لنفسه قبل أن يكون خادع لزوجته، لا تفكري في هذه الأمور (هنا) فليس كل الرجال خائنين، ولا يجب النظر إلى الجوانب السلبية من الزواج واجتهدي أن تجذبي زوجك إليك ولا تفكري في غير هذا، سأذهب لأصلي العشاء وأريدك أن تخرجي هذه الأفكار من رأسك.

تمتمت (هنا) بخيبة، وهي تنظر إلى أبيها في ذهابه تريد أن تخرج وتنزع عن قلبها كل هواجسها:

_ أفضل أن يقول لي صراحة أنه يود الزواج ويخيرني بدلًا من أن يخدعني .....

ثم قامت من مكانها ومازلت نفس الفكرة تدور في عقلها، أن الرجال يضعون كامل الحق على زوجاتهم، أنهم سيملكون المبررات ومزيد من المبررات، ليعيشوا اللحظات التي يحلمون بها مع نساء مختلفة ....

تسللت (هنا) إلى أمها بالمطبخ لم تستطع أن تكتفي بما سمعت، فعقلها يرفض الاستسلام لفكرة دون أن تسمع كل الآراء حولها من كل الأطراف، متظاهرة بأنها تريد المساعدة ومحاولة جذب أطراف الحديث ما بين هنا وهناك، حتى تصل إلى غايتها، فوصلت بالحديث إلى عالم الرجال، ثم صارحتها بأنها تخاف من ما سمعته من حكايات الصديقات وقد خافت على قلب أمها أن تعلم أنها أوجاع بناتها فتجزع وتحزن، فحكت لها كأنهن صديقات لا تعرفهن الأم.....

فقالت لها الأم :

- يا حبيبتي... الشرع حلل للرجل أربع لكي لا يضطر لتفريغ عاطفته في الحرام أو في الخيانة، لكي يكون واضحًا ولا يخدع زوجته، لكي يسقط عنه وصمة وعار الخيانة، لكنه لن يستطيع أن يكفي أربع، لا أتحدث فقط عن المال، بل عن الوقت والمجهود والسعة والحديث، عن التواجد والإحساس والإحسان والمشاركة، عن طاقته لاستيعابها وقضاء أمورها لأنه هو ولي عليها ومسؤول عنها، وأيضًا من المستحيل أن يعدل بينهم، لذلك فالفطرة تذهب بالعقل لأن يتخذ زوجه واحدة، لكن تظل فكرة التعدد راسخة مترسخة في ذهنه ويرغب بها، ولا يستطيع تحقيقها ولا يستطيع كل الرجال الخروج من هذه الأفكار

إلا بالتمسك بالدين، فإن سقط عنه الوعي الديني الكافي والخوف من الله سقط في براثن مصيدة الخيانة، وأحيانًا كثيرة الوعي الديني لا يتوافق كثيرًا مع المظهر الديني الذي أصبح مجرد ستارًا يتخفى وراءه الناس ، ولكن لتعلمي أنه مازال الزواج بأخرى هو الحل لبعض الحالات والأوضاع لكي لا أكون متحيزة التفكير، فالزواج إن كان مستطاع أفضل من العبث كالأطفال والمراهقين.

كانت (هنا) تقف تنظر إليها مشدوهة ، شعرت أنها تسأل عن أشياء كان من الأفضل لها ألا تعرفها بتاتاً، هنا اقتربت منها والدتها و وضعت يدها على كتفها وقالت لها :

_أرجوك يا (هنا) لا تفكري بهذه الأفكار، فمازال هناك الطيب الصالح والرجال معادن، انظري إلى والدك، كان دائماً زوج صالح يعلم دينه ويخاف الله، فلا تقلقي وتسبقي الأحداث بخوفك وجزعك ، لعل الله يحدث ما هو خيرًا، لأن الخير في الناس إلى يوم الدين.

(هنا) تنظر لأمها تحاول أن تفهم وهي تطأطأ رأسها وتقول :

_حسنًا يا أمي.....

لا تستطيع (هنا) هذا اليوم سوى أن تفكر في كل هذه الأحاديث في الأيام الأخيرة والشكوك داخلها، وتلك الصورة المهزوزة التي نصبتها الأيام أمام عينيها في مواضع تلو بعضها .....

أصبحت ترى الرجال قد يخونون وهم بكامل عقولهم ووعيهم ويخونون حتى إن كانت العلاقة كاملة لا ينقصها شيء، رغم امتلاك كل مقومات السعادة؛ يتعاملون بطريقة رقيقة رومانسية ويحاولون من خلال ذلك إبعاد شبهة الخيانة عنهم لكي لا تكشف خيانتهم

ويسارعون إلى إمضائها وإفراغها بصورة غير مشروعة عندما تحين الفرصة لذلك، ترى الرجل يتسلح بالإرادة الكافية لتجعله خائنًا من الدرجة الأولى، فهو يستطيع بلحظات أن يحول نفسه إلى شاعر عابث بعقل امرأة وينشئ بين أضلعها مشاعرًا كانت تنتظرها طوال عمرها، ليجعل قلبها يرفرف بين أضلعها، يتظاهر بالدين و بالأخلاق العالية السامية حتى يقبض عليها بآخر أنفاسها رويداً رويدًا ليصل إلى مطلبه الشنيع الذي يكشف حقيقته البالية.

ظلت تجلس على سريرها تنظر لذلك الكيان الأبيض المعلق أمامها في شرودٍ تام، وجمود كامل، ترى أمامها مراسم كاملة لدفن إنسان ....

آن الأوان أن تذهب إلى أبيها.....
لتخبره قرارها وتتحمل كل النتائج .....

.....

(إن الحزن الصامت يهمس في القلب حتى يحطمه)
..شكسبير

جلست (نور) تبكي وحيدة في الشرفة، تتذكر ما حدث بينها وبين (شمس)، كانت (شمس) أول من عارضها وقاطعها ووضع كل الحواجز بينها وبين (أحمد) ، بعد أن علمت بأنها على اتصالٍ به .....
كان الأمر بينها وبين زوجها قد استعظم وحالت كل الحلول دون التقريب بينهما، فلم تجد سبيلًا إلا الخروج إلى بيت أبيها وحدها ليلًا، لم يحاول حتى أن يمنعها من الرحيل في هذا الوقت ....
بل قال بكل برود: (الباب يفوت جمل.... بالسلامة).....
عادت إلى بيت أهلها لا تعلم إن كانت جانية أم مجني عليها ، مكسورة ، موجوعة ، لا تدرك صدق من سراب كل ما تعلمه أنها أرادت الخلاص.
وجلست تنتظر انتهاء المفاوضات بين الأهل في بيت أبيها ستة أشهر لا يحاول الاقتراب أو الاتصال أو معرفة أي شيء عنها، كمن ارتاح من حملٍ ثقيل ولا ينوي إعادته و العجيب أن الشعور كان متبادل، لكن الأهل ظلوا يحاولون إصلاح ما لم يكن موجوداً، إعادة ما لم يوجد أصلًا منذ البداية.....
ثم علمت (شمس) مصادفة أن حدث بينها وبين (أحمد) اتصال، (نور) التي أبت أن تكون زوجته في النور.....

حدثته ليلاً تبكي فراقه وتشكو له هموم الزمن، وقتها انهالت عليها (شمس) بكل عبارات الإهانة المعروفة ..
(_ أنت امرأة رخيصة غبية .....)
(_ أنت لا تستحقي زوجك وبيتك يا خائنة الأمانة ...)
(_ احمدي الله أنك لم تنجبي....فمثلك لا يستحق شرف الأمومة)..... كل العبارات انهالت عليها تباعًا دون شفقة، أو رحمة أو تعاطف، وجعت قلبها وشرخت نفسها ولم ترحم دموعها وشوقها، كانت كخنجرٍ يطعن دون تردد.
قاطعتها بعدها فترة ليست بقصيرة قبل أن تعود تتودد إليها برفق وحب، ولكن بانكسار وحسرة .....
روحها أفسدها ألم كبير أم تذوقت مرارة لم تتوقعي وجودها، لم تدر(نور) سوى أن (شمس) الآن لا تقدر على تجميع شتات نفسها بنفسها، تمنت (نور) لو استطاعت مساعدتها لكنها لا تعلم من أين تبدأ، بدأت بعض الأصوات تعلو وتتعالى داخل المنزل كمن يتناقش بقوة، فانتبهت (نور) وأسرعت ذاهبة إلى مكان الأصوات متعجبة متسائلة.....
لتجد أختيها (جميلة وشمس) قد وصلتا.....
والعروس تقف بينهما ....
مازالت ترتدي (بيجامتها)....

.....

.....

وقف الجميع كمدًا غمًّا ينظرون لبعضهم، أصابت الحسرة الأب (عز) عندما أبلغته (هنا) قرارها .....

قال لها بصوتٍ عالٍ وغضب شديد:

_ماذا الآن؟..... كيف أخبر الناس ذلك؟... ابنتي تلغي زفافها ليلة العرس... أين كان عقلك من قبل؟! .....لماذا كان القرار متأخر جدًّا .....أين كان تفكيرك؟! .....

كان يملؤه الغضب والحسرة وقلة الحيلة و(هنا) تبكي، لا تتوقف دموعها، ولا تهدأ حيرتها وهي تخبره :

_يا أبي ارحمني.....

فرد عليها بعصبية :

_وهل حاولت رحمتي أنت؟!.....

قالت (هنا) من بين دموعها :

_حاولت يا أبي... لكني لا أقدر.... أرجوكم جميعًا..... لا ترغموني.....

كان قرار (هنا) بإلغاء الزفاف خبرًا صاعقًا ومفاجئًا للأسرة ، كيف تفعل هذا بمن أحبها وأرادها وأصر على الارتباط بها ، كانوا يعلمون أنه يحبها ويريدها، ولا مجال لخلاف أن يفسد ما بينهما، نظر الجميع إلى (شمس) كأنهم توقعوا منها أي تأييد لأبيها أو محاولة لإرجاع (هنا) عن ما عزمت.....

قال لها أبوها:

_(شمس) تحدثي إليها...كلميها .....

ردت (شمس) بكل برود لم يعهدوها به من قبل:

_أبي اتركها.... لعلها تكون أسعد حظًّا.... أنا لا أقوى على أقناعها بما لا أعتقده..... فالزواج أفشل مشروع يمكن أن تدخله.....

كلامها كما الصاعقة نزل على الجميع، خاصة الأب الذي أصابه الدوار، الكل مبهوت، والأب يتساءل كيف ومتى وصلت بناته لهذا الحد من التعاسة؟!.....

وزوجها ينظر بحسرةٍ إليها، نزلت عليه كلماتها كالحجارة، لا يعلم لِمَ يتحمل منها كل هذا وإلى متى يستطيع الوفاء بالصبر عليها، إلى متى يستطيع الحفاظ على عزيمته وإصراره في إنجاح حياتهما....

سكتت (نور) لم يكن لديها ما تضيفه سوى أنها تود أن تنفصل قبل أن تموت بمنتهى البطء في هذا الوضع المؤلم، فقط تنتظر أن يحظوا بفرحةٍ كاملة في زفاف (هنا)، انتظرت حتى مرور زفافها وها هو لا يمر...

آثرت الصمت ....

لا حديث هنا أبلغ من صمت الكلام .....

.....

.....

كانت (شمس) تنظر للمحادثات التي تدور حولها عن زواج (هنا) بسخرية ومزيد من القرف والسخافة واللامبالاة، تتعجب لماذا هذا الإصرار على زواجها؟، هل المشرحة بحاجة إلى مزيد من الشهداء، بمزيد من تقلص القلب؛ تذكرت حديثها مع زوجها في لحظات قليلة...

هو: لم تكن تلك خيانة يا (شمس).

هي :ماذا هي إذًا؟! .....

هو: إنها امرأة سيئة رخيصة تعرض نفسها، ليست مثلك ولا بمكانتك عندي ولا تعني لي شيئًا، أنت فقط من لي وحياتي وفي قلبي وحدك .

هي: هل تعني أنها ليست امرأة... فلا تُقارن بي... أم أني لست امرأة لأُقارن بها؟!!لماذا بينكما علاقة ومحادثات جنسية أم لا؟....

هو: يا (شمس) ، هي امرأة سيئة السمعة....هذه ليست امرأة وليست خيانة.... كيف تفهمين ما أحاول توصيله لك؟!..... كانت لحظة طيش أو ضعف أو أي شيء إلا أن تكون خيانة... كان تفريغ لطاقة واحتياج فقط.....

هي: أليست لدي هذه الاحتياجات أنا أيضًا ؟!! أيمكنني الاستسلام لهذه اللحظة من الطيش والضعف وهي لن تعتبر خيانة.

....

هو: ستكونين وقتها مثلها.... لكنك لن تفعلي.....أنت محترمة ... أنت زوجتي وأم أولادي.

هي: هل هذه المسكينة التي فعلت ما فعلته أنت تمامًا خائنة وسيئة السمعة.... تلك التي لم تستطع التغلب على لحظات ضعفها ....؟!! هي خائنة سيئة ورخيصة ، وأنت برىء ،في عرف من هي خائنة وأنت لا؟!!! عرف من أن أتحمل وأُغالب نفسي وأنت لا.

هو :في عرف كل الناس وكل المجتمع...

هي: وهل هو حلال لك وحرام علي؟

هو: أنا لا أتحدث عن الدين الآن، ولا أفهم لم الجدال في أمور معروفة ومسلم بها وما الفائدة منها... قلت لك هي ليست خيانة... إن قلبي لا يحمل لها أي شعور أو إحساس.

هي: هل إذا حملت لها مشاعر أو عواطف ستكون خيانة؟

هو : أنا لن أوذي امرأة أحبها أبدًا...وإن حملت يومًا مشاعر في قلبي لامرأة لأصبحت زوجتي .

هي: شكرًا لإخباري بعدم حبك... فقد أذيتني وبشدة ولسنوات أيضًا... أتمنى فقط أن أعلم؛ هل هذا من ضمنه أن تخيرني عندما تحب؟

هو: أنت غبية... من أين لك هذه الأفكار الشاذة؟!.... أنت لست أنثي طبيعية....افهمي أنه طبيعي جدًّا لكِ أن تتحكمي باحتياجاتك وضعفك هذا هو المفروض.....

هي: من فرض هذا....

هو: الدين ياهانم.....

هي: سبحان الله تتحدث الآن عن الدين... أم هو دينًا جديدًا لا أعلمه.. تبًّا لك ولعقلك وأفكارك ومجتمعك....أهو دين لك ودين علي؟!!!

هو: مازلت على رأيي بأنك غبية... أنت لا تفهمين اذهبي إلى أمك وأبيك واسأليهم من منا المفروض أن يتحكم في احتياجاته ومن يسامحه المجتمع ويعطيه الفرص ومن يقتل.

.....

كانت هذه نهاية النقاش، حمل مفاتيحه وخرج عبر الباب وأغلقه وراءه بقوة، و(شمس) تحدث نفسها من المفروض إني أنا الغاضبة وليس هو .....

كانت (شمس) تعلم صحة كلامه، فلو ذهبت بهمومها هذه حتى إلى أمها وأبيها لاتهموها أنها هي السبب وكأنها لا تحمل كفاية، فسيطالبونها بحمل المزيد ....

لطالبوها بمزيد من الاهتمام ....

ولطالبوها بإعطائه المزيد من الفرص، وأن تصلح هي نفسها ، وتخفف عنه همومه وحموله، فقدت شعورها بهذه اللحظة أنها إنسان فعليها أن تكون جبلًا وتتحمل ولا تشكو ولا تشعر بل أيضًا أن تكون

دائمًا مبتسمة منشرحة سعيدة، كيف لها أن تكون كل هذا؟!!، في حين لن يطالبه أحد بالإصلاح أو محاولة الصلاح .....
إنه الرجل ....
أما إن كانت هي مكان عاهرته هذه، لغضبوا عليها ولعنوها وكانوا أول من قذفها خارج حياتهم، كأنه لم يفعل حرام وهي فعلت، عجيب هذا المجتمع الذكوري العقيم، لا يجب أن تلتفت له أو لأفكاره.
من الآن فصاعدًا كان قرار (شمس) أن تحظى بما يحتاجه قلبها دون الرجوع إلى كلام الناس وحكمها، فقد وضح لها أن حكمهم غير عادل وفي كل الأحوال إذا كانت هي شماعة الأخطاء لزوجها سواء خطأه أو خطأها فلتروي عطش قلبها المتلهف لفرصة حب، وتقذف كل أوجاعها وآلامها وأفكار مجتمع مريض إلى عرض الحائط وتحظى بما تريد وما تحتاج .....
لكن كانت النتيجة أن تعاني وحدها في صمت نتيجة محاولة الارتواء، فلم يزدها وجود حبيب إلا تجربة موجعة أخرى من رجل وها هي تعلمت أن تغلق قلبها بعيدًا عن كل الرجال حتى زوجها.

.....

(إن ملف الماضي لدى العقلاء يغلق ويطوى ويدفن تحت عمق الذاكرة)...

انتهى الماضي لن يفيد تذكره سوى الهم والغم والكدر، تعلم (جميلة) أن القراءة في ملف الماضي ضياع للحاضر وتضييع للجهد ولا فائدة منه ومع ذلك هي الأحداث تأتي وحدها أمام عينيها لتزيدها أسى، يا الله، كم تود لو تنسى، لكن ليس سهلًا أن يكون كل ما بك عاديًّا، لا مميزات خارقة للعادة ، فليست جميلة ولا دميمة، لا متفوقة ولا فاشلة ، كل ما يمر بحياتها عاديًّا جدًّا، لا مواهب ولا صفات ولا جديد يلفت النظر، وكأن مصيرها في هذا المجتمع ألا يراها الناس ...

ها هو مشهد (هنا) وإصرارها على إنهاء الزفاف يعيدها لنفس المشهد، قبل بضع سنوات عندما كانت تواجه الجميع وحدها ثائرة على قبول العادي على قبول الزواج من (هاني)....

كان (هاني) ابن الجيران ذلك الشاب الوسيم الذي تتمناه كل الفتيات يشبه أبطال الأفلام على شاشات السينما، يعمل بالخارج وكانت هذه أجازته التي قرر فيها الزواج ، أصابتها الدهشة والصدمة و الاستغراب لِمَ أنا !! ....

لِمَ مثل هذا العريس يختارني أنا ؟! ....

كيف يكون اختياره عاديًّا؟!!....

جرت الذكريات بعقل (جميلة) دون إرادتها.....

تكلم معها بصراحة أنه يريد أن يناسب بيت (الحاج عز) المعروف بأخلاق بناته، أن ظروفه المادية ليست جيدة تمامًا وهو يود أن يتزوج من إنسانة أصيلة تقدر ظروفه ووضعه وتتحمله، شعرت به كالطفل ...

استدرجت في مشاعر لم تثمر لها إلا الانصياع التام أمام سحره، فكانت تصدق كل شيء ومستعدة لمساعدته ومواجهة الحياة معه بكل شيء، أصابتها الحسرة كثيرًا عندما علمت أنها لن تسافر معه، قد يكون هذا لبضع سنوات حتى تتحسن ظروفه ويستطيع أن يصطحبها، ثم ماتت الفرحة كلياً عندما وجدت لا سبيل للزواج إلا في بيت أمه، حجرة نوم جديدة هي كل ما قد يُكتب لها في بيت زوجها ...

ولكنها ظلت سعيدة لأنها أخيرًا ستخسر هذا اللقب الذي كانت على مشارفه وأول عتباته" لقب عانس"، تطير فرحًا وهي ترى صديقاتها يحسدونها أنها في النهاية ستتزوج بهذا الوسيم ...

كان ثمنا رخيصًا جدًّا لبضاعة غالية ، يتنازلون عن الكثير فقط لرؤيتها في (كوشة) العرس، لا أحد يعلم معنى الصدمة كما تعلمتها هي، عندما اتصل بها زميل له لا تعرفه، أخبرها أن ظروفه المادية جيدة ولكنه لن يصرف ماله إلا على زوجته التي يريدها، أخبرها أنها لا تعرفه لكنه لا يرضي لأي فتاة أن تكون مكاني لذلك كلمها دون ذكر اسمه ....

كان فقط يريد من يراعي أمه المريضة أثناء سفره، تطلعاته للزواج واسعة، معه ما يستطيع شراء شقة وتأثيثها وأصطحاب زوجته معه إن شاء ولكنه يوفر ماله للعروس التي يختارها قلبه لتسافر معه...

أما هي اختيار أمه لأبقى معها....

لخدمتها.....

لتمريضها....

كانت الحقيقة المرة هي ما أنقذتها في آخر لحظة للمرة الثانية ، لم تصدق في البداية ولكنها بدأت في السؤال الجاد عن الأمر، بحثت فعلمت الحقيقة كلها، واجهته فقال:

(وما يغريني بالزواج منك أو يجعلني أريدك سوى لتبقي مع أمي المريضة) ...

لم يتمسك بها كثيرًا، كان يعلم أنه سيجد غيرها تقبل هذا الوضع دون أن يقدم الكثير ...

أما أمه فقالت: (أنت كبيرة في السن ولن تنجبي... لماذا السفر معه ؟!!).

.....

....أعادها ضجيج العائلة من سباحتها في هذه الذكريات المرة..

وقفت (جميلة) تنظر للجميع .....

_أرجوكم..... دعوني معها وحدنا.... أريد أن أتحدث إليها....

.....

(بناتي جنتي وناري).....

ارتمى الأب إلى أقرب كرسي جواره، عاجزًا عن حمل نفسه وهمه وغلب السنين، مطأطئ الرأس، يرتعش جسده كله من هول مفاجئة الخبر، مقطب الجبين، يتمتم بكلمات غير مفهومة لمن جواره، لعله يدعو الله أن يكون ما فيه الخير للأسرة ....

اقتربت منه الأم وجلست جواره مقطبة الجبين تقول بكل غضب وقالت:

_(خلفة البنات، هم حتى الممات .....)

نظر إليها بهدوء ، ثم قال بصوتٍ خافت:

_هم؟!! ...

سخر في نفسه ، لا يزال البعض ينظرون لـ(أبو البنات) ببعض الشفقة، على الرغم من أنه وحده يعرف متعة خاصة لإنجاب البنات وتربيتهن ربما لا يدركها غيره، فلا متعة تضاهي تعلق إحدى بناته برقبته وتقبيله بكل دلال، لا متعة تضاهي كفها الصغير يحتضن كفه

، ولا متعة تضاهي أن تنظر في عينيه فتفهمه من نظرة، استطرد قائلًا لها:

_ بل كانت كل تفاصيلهم حلوة ، من اللبس للضفائر والعرائس حتى شقاوتهم، كانت تُفرح...

يدرك تماماً أن بناته كانوا أكثر اتزانًا من أي ولد وتربيتهن أسهل، كانوا دائماً على قدر ثقته ، لكنهن رقيقات يتأذين كثيرًا في مجتمع قرر أن الفتاة ليس على نفس القدر من القيمة كما الولد، جعله هذا يحاول تعويضهن ، لكنه بشر، أخطئ ببعض المواقف معهم و تصرف بحكمة بمواقف أخرى و كان أمرًا صعبًا أن يحارب ضد المجتمع والتيار ليعطي بناته تلك القيمة والقدر الذي نكره عنهم المجتمع كله.....

يتألم من الداخل، إن اليوم الذي يتخلى فيه عن إحدى بناته ليعطيها لرجلٍ غريب يعلم أنه لن يحبها ويتمنى رضاها كما يفعل هو؛ يترك في نفسه أثرًا لا يحب أن يتحدث عنه ، لكن بقاءهن إلى جواره لتنهش بهن ألسنة الناس والأقارب ليس الخيار المفضل إليه، كل من رحلت تركت وراءها فراغًا يعجز عن تجاهله ، خاصة مع نظرة أعينهن التي دلت على خطئه في الاختيار في كل مرة، أصواتهن التي فقدت نبرات الفرح ، وأرواحهن العذبة التي تغيرت وتبدلت.

خطفه من أفكاره صوت زوجته:

_أحيانًا ينتابني الحزن أنى وضعتهن جميعًا بنات، لا أقوى على رؤية ذلك الكسر في أعينهن وأعجزعن جبره أيضًا....

فقال لها :

_ أما أنا فأعترف أني محظوظ وموفق لأني (أبو البنات).....رغم عجزي عن جبر هذه الشقوق التي تبتلع أرواحهن، سأظل أساند كل رغبة تمنتها نفوسهن....

ثم سرح بخياله داخل نفسه قائلًا، (حتى إن كان هذا القرار يعني أن ألغي زفاف (هنا) يجب أن أكون شجاعًا كفاية لأحميها) ، الدقائق تمر ببطء والوقت يتثاقل، ومازال يدعو الله أن يقدم لهن الخير ومازالت بناته لم تخرج من تلك الغرفة بعد....

قطعت الأم كل هذا الصمت الرهيب الطويل، ممسكة ذقنها بطرفي أصابعها..... قائلة:

_(ماذا أفعل بكل هذا الطعام الذي أعددته) .....

نظر إليها، ذهل للحظات كنائم انتفض من سباته العميق فجأة، ثم لم يتمالك نفسه من الضحك ....

_يااااه... أنت بما تفكرين.... صحيح هم يضحك ....

ثم قهقه ولم يستطع منع نفسه وضحكت الأم معه رغم غمها....

.....

(شمس) خرجت مسرعة أو هاربة من نظرات وتساؤلات الجميع تبغى اللجوء إلى أرض جديدة ، بداية جديدة لم تر وتتعلم بها كل هذا، شعرت بخطوات أرجل تتحرك خلفها، ثم أتاها صوت زوجها:

_شمس.... أنت أغلى ما ملكت يومًا... أتمنى أن تعلمي ذلك.... هناك من المحبة ما لا يفارق النفس مهما كان الخلاف ....

ثم اقترب منها يمسك كتفيها من الخلف، ويربت عليها، تعجبت نوعًا ما من كلماته ، ولم تملك القدرة على تصديقه تمامًا، لكن كلماته امتصت جزءًا من وجعها، من نزيف كرامتها، زالت بعض من مرارة نفسها، لملمت شيئًا عميقًا انكسر داخلها.....

فقالت له :

- أنا مثل أي إنسان قلبي زجاج هش قابل للكسر... ونفسي تهتز بقوة من أقل إساءة.... أنت لم ترفق بي....

فقال لها :

_سامحيني.....

قالت ساخرة :

_إذًا أعطني معجزة من السماء تجعلني أنسى انكسار سنوات طويلة كنت أنت كل حياتي وكل ما لي..... خذلتني وبمنتهى القوة والعزم والإصرار.....

فعاد يكرر عليها :

_سامحيني.....

قالها بصوتٍ يشبه الهمس، بلا ثقة، يعلم أن لا طريق الآن ممهد بينهما، ولكن يعلم أن أقرب حديث للقلب هو ما يخرج من القلب لذلك أعادها ثانية بقوة وهو يلفها لتنظر إليه ويرى وجهها:

_سامحيني..... سامحيني..... فلنصلح ما انكسر.....

أشاحت بوجهها بعيدًا عنه، لا تريد أن تخور قواها الآن، لا تريد أن تكون كما كانت دائمًا، فقالت له :

_يا عزيزي.... إن ما ينكسر في النفس لا يسهل إصلاحه .....

فقال بإصرار :

_يا شمس.... إن يريدا إصلاحا يوفق الله بينهما...

وقعت عليها هذه الكلمات في موقع قوة لم تتخيله، فما يؤلم حقاً أنها ما عادت تريد إصلاحه، ما عادت تبالي أو تهتم، وإن سامحته ، فكيف لها المقدرة لتسامح نفسها ؟! وهل يسامحها هو إن علم ما شعرت تجاه غيره .....

استرسل قائلًا...:

_ماذا تريدين أن أفعل من أجلكِ لتقتنعي بأني أحبكِ ولا أريد غيركِ في حياتي، وأني باقٍ على عهدي لكِ مخلصًا وفيًّا، وأن أحملكِ داخل قلبي....

كانت كعادتها مؤخرًا، أفكار تطيح بعقلها كدوامة لا تهدأ، لم يعد قلبها يصدق أو يثق ، وهي تود حقًّا لو تهدأ قليلًا من صراع نفسها ، فأجابت :

_لا تفعل أي شيء..... لا تفعل أي شيء.

تركته في الشرفة وذهبت إلى حجرة أختها وهي تنوي البقاء معه ولكن لا تنوي حبه ، لم تعد تشعر بميلٍ في نفسها إليه، أو قد تكون نفسها ما عادت تستطيع الميل إلى أي اتجاه ، ربما فقدت قدرة قلبها وإحساسها وعاطفتها للأبد .....

.....

لن تتحمل ما تسعى إليه ....

لن تتحمل أشواقي....
هل تتحمل تعلقي وارهاقي ؟....
أين صوتك أين أحوالك؟.....وكيف التلاقي؟.....
ستلعن غيرتي ....
و تلعن كيف أحكم بقلبك وثاقي....
ستثور لاعنًا حبي ....

وترحل ....
وأظل أبحث عن شبحك بين الرفاقِ....
ستترك مكانا خاويًا..
...لن يشغله حتي دمع قلمي وأوراقي.....
رثاءً لحالي .....

وقلبًا يشتاق التلاقِ.....
لا لن أمر بهذا أبدًا.....

ولن يقتحم العشق أفاقى.....

دخلت (جميلة) مع أختها (هنا) إلى حجرتها، نظرت إليها وقالت:

_يا هنا .... لم هذا التغيير المفاجئ؟..... هل حدث خلاف ما؟.. هل هناك ما جعلك تغيرين رأيك؟ ....هل هناك ما يقلقك أو يشغل بالك؟..... حبيبتي تكلمي... فضي عن قلبك أحماله.

قالت (هنا) وهي تبكي بكاء شديد :

_أخاف يا جميلة...

قالت (جميلة) :

- مم عزيزتي؟

ردت (هنا) :

_لا أريد أن أكون نسخةً أخرى من (نور وشمس).

هدأت (جميلة) من أختها قليلًا وربتت على كتفيها وقالت :

- لا تكوني مثلهم... كوني أنت.

فقالت (هنا) بصوتٍ مخذول:

-كيف؟.....أنا لا أعلم كيف؟..... أخاف أن أفشل .

شهقت عميقاً ثم استطردت قائلة :

_ أرى التعاسة في وجوههن تزيد وبلا أمل..... لا يمكنني القبول بهذه الحياة يا (جميلة)..... لا أستطيع تقييد نفسي وعمري وأحلامي لحساب رجل... أيًّا كان مبلغ حبه لي.... ما السبب وما المقابل؟ .....

ردت عليها (جميلة) :

_يا (هنا)..كوني أنت.... كوني ولي أمرك وصاحبة قرارك.... أنت لست مضطرة لتقييد حياتك لحساب أي كان.... كوني حاسمة حازمة ولكن لا تنسى أن تكوني حانية ودودة قريبة.. لا تبالغي والزمي وسط الأمور.... لا تكوني ضعيفة جدًّا مثل (شمس) فتذوبي به... لا تحني ظهرك كثيرًا فلا يعد يراك .....لا تذوبي به كقطعة البسكويت في كوب حليب فتختفي .....ولا تتصنعي القوة كثيرًا مثل (نور) ....لا تشدي نفسك فلا تدعي له مجالًا آخر إلا كسرك..... كوني قريبة في البعد وبعيدة في القرب..... فيحترم كل منكما حدود الآخر.

نظرت لها (هنا) وعيونها قلقة غير واثقة، فأكملت (جميلة) حديثها قائلة :

_ يا حبيبتي.... اجعلي دائمًا شيئًا في حياتك لك وحدك.... لا يخصه ولا يختلط به..... فوارد أن تفشل التجربة فتعودي إليه..... ولا تصبحي خاسرة لكل شيء....لا تضعي البيض كله في سلةٍ واحدة... اختلف الزمان عن أمهاتنا... كانوا يراهنون على سلة غالبًا ما تربح..... تغيرت الأيام يا (هنا).

ردت(هنا) من وراء دموعها، بصوتٍ يخنقه هم الكون:

_كيف عرفت كل هذا يا جميلة..... كيف تعلمين هذا ومن أين لك به؟.... أخبريني ما دليلك فيطمئن له قلبي؟ ....

قالت (جميلة):

_وهل يجب أن نتذوق مرارة التجربة حتى نتعلم.... يكفي أن تراقبي الكون من حولك.....

ثم هدأت نبرتها قليلًا واقتربت من أختها تحتضنها وتطمئنها قائلة :

_يا (هنا) أنت لست على مشارف أرض معركة والنصر لمن يفرض سيطرته..... بل لابد أن يجد لديك ما يغريه باللجوء إلى قلبك..... كوني ملجأه..... وليس سلمه..... نضطر صعود درجات السلم في الطريق إلى الملجأ ولا نلتفت إليه عند الوصول .

.....

رفعت (هنا) رأسها ببطء إلى أختها، تريد النظر في عينيها لعلها تصدق ما تقول وهي تكمل حديثها :

_يا (هنا).... أعتقد أن لدينا القدرة على إخراج أسوأ ما في شركائنا... إذًا أصررنا على رؤية هذا.... رؤيتك لما تعتقديه أنت في الآخر يظل يعتم رؤيتك عما هو حقيقي... حتى يصدقه هو في نفسه ويتبنى رؤيتك ويكفله وينميه فيه.... فيصبح سيئًا فعلًا..... فنظرية الأسود والأبيض في البشر لا وجود لها.....

_هل تعتقدين أن (نور) تفعل ذلك؟.....

هزت (جميلة) رأسها أسفًا..... وتمتمت:

_لا أدري حقًّا..... أنا لا أدري ما تفسير هذا المنحدر الذي يسوء في حياتها؟... لكنى مؤمنة تمامًا أن لا أحد بهذا السوء... أو أن الأمل مفقود.... فالحياة الزوجية دائمًا قابلة للتحسين والتغيير للأفضل مهما حدث بها... مهما بلغت من سوء... بشرط أن يريد كلاهما إصلاحاً ....

قالت (هنا) :

_لا أفهمك تمامًا.....

هزت (هنا) رأسها كمن ينفض عن عقله أفكارًا عششت وعاشت وثقل حملها، ومسحت عينيها بيدها بقوة، كمن يحاول مسح زجاج عتمته الشبورة والضباب، فلم يستطع تمييز الرؤية وهي تستمع إلى حديث (جميلة) :

___يا حبيبتي..... لكل منا أخطاؤه وشخصيته ونمط حياته.. . وجانبه الأسود وجانبه المضيء.... وجميعنا نتغير.... نحن نتغير باستمرار ... فلا ثابت في الحياة.. وجود الثوابت ضد قانون الطبيعة المتغير .... حتى الثوابت إن ثبتت تتغير مواقعها كخروج الشمس وغروبها .... إن ثبتت الظاهرة تغير موعدها وموقعها.... فكيف نثبت حكمًا واحدًا على إنسان... قد تتغير مواقعه ومعاركه وأفكاره.... كما تتغير فصول العام... كيف نثبت إنسان عند خطأ أو لغطه.... أو نقطة ضعف.. كلمة أو موقف أو رد فعل.... ونحرم أنفسنا من اكتشاف مواطن جماله في فرص أخرى جديدة... مشكلة الأحكام في العموم يا (هنا) أن الطرف المحكوم عليه يصدقها بعد فترة ويتلبسها ويعيشها.. في حين أن الحب والدعم والمساندة

والإحسان حتى للإنسان الذي تعتقده بهذا السوء يطفئ جمر جانبه الأسود ويشفيه ويغيره.... ويظهر جانبه الأفضل نحتاج أحيانًا لإعادة النظرة في الأشخاص حولنا.. وفي حياتنا ككل نجدد الفرص والعلاقات قبل نفادها.....

_.....

صمتت (هنا) لحظات تنظر إلى أختها، تحاول الاستيعاب وحفظ هذا الكم من المفاجآت الذي يعصف بثوابت قائمة في صميم فكرها ثم قالت :

_ولِمَ لم تتزوجي إن كان هذا رأيك؟..... لم بقيت بدون زواج كل هذا الوقت؟... أشعر بأنك الذكية الوحيدة في هذا المنزل لتبقي دون زواج...

مصت (جميلة) على شفتيها وطأطأت رأسها وهزتها نفيًّا ثم قالت :

_ياعزيزتي لم أكن محظوظة مثلك.... فيأتي إلى من يحبني كل هذا الحب....

ثم نظرت أمامها كمن ينظر إلى العدم وأكملت قائلة :

_من يستحق أن أدخل المغامرة وأراهن من أجله... أنا لن أتزوج بغرض الزواج فقط إنه أقصر طريق للفشل يا (هنا)..... لا تضيعي فرصتك بالخوف.... أنت وجدت من يستحق حبك ومن يحبك.... والحياة ليست بهذا الكرم لتهديك غيره..... أنت لن تحصلي كل يوم على من يحبك..... أعلم أن الفشل أصبح يحيط كل من حولنا وأصبح شبحًا نخافه..... ولكن لتعلمي أن العيب ليس في منظومة

الزواج... إنه في الناس... نسوا كيف يحبوا... وكيف يقتربوا من بعضهم...كيف يسامحوا وكيف يقتربون ويتواصلون..... أضعنا أجمل ما فينا في حرب وكأننا أعداء.... والزواج تكامل وليس تفاضل وهو عكس كل القوانين... هو الشيء الوحيد الذي يزيد بالقسمة على اثنين... لا يجب أن يكون أحدهم أنانيًّا ليأخذ كل الحب والتفهم... سينعدم مع الزمن.. أضعنا كل قواعد الزواج الصحيح وضربنا بالمنطق عرض الحائط... كيف ينجح زواج يفصل فيه كل طرف الحق كما يراه ويحبه.....

قامت (هنا) وقفت ومشت بضع خطوات بعيدًا عن أختها، كأنها تخاف أن تصدق كلامها، فآثرت الهرب بعيدًا عنها، ونظرت إلى الاتجاه الآخر، إلى طرف الفستان الذي مازال يداعب عينيها من الدولاب الصغير وهي تعطيها ظهرها، تمسح عينيها بأصابعها بكل قوةٍ وخوفٍ وارتعاش ، وقالت:

_يا (جميلة)... لم يعد الزمن يحمل رجالًا نعتمد عليهم فيما تقولين ... أصبحت أرى نساءً تتزوج لتتحمل كل الأعباء وحدها.... وكأنه واجبها تمامًا.... كل شيء أصبح يدور في غير مساره...الكون يتغير بمنتهى البشاعة والحياة ما عادت تثمر..... لا يمكنني أن أتفاءل أو أرى إشراق في علاقة يكون أحد طرفيها رجل.....

في هذه اللحظة اقتربت (نور) و(شمس) من الغرفة ووقفا جوار باب الغرفة، ينظران إلى أختهما ، يشعران بالذنب ، ما وصلت له اليوم كان بفضلهما تمامًا، ولا يملكان ما يدافعان به أمامها....

اقتربت (نور) من أختها، أمسكتها من كتفيها بكل قوةٍ ونظرت إلى عينيها؛ تريد أن تعيد لها بعض ما أضاعته داخلها من مشاعر وأحلام؛ من المفروض أن تمتلكها من هي في ليلة عمرها و قالت لها :

_يا (هنا) الزواج مشروع بين طرفين..... فشله لا يعلق على أحدهما.... فشله يعني أن كليهما فشلا.... هل تعلمين.... أنا و(شمس) أختك كانت تتضح لنا كل العيوب، كل الأخطاء من البداية... وأكملنا بمنتهى الغباء.... لم يكن فقط الحظ هو السبب... بل كان خطأ منا... وسوء اختيار وقلة خبرة..... فلا تدفعي أنت ثمن أخطائنا وفكري بحالك وليس حالنا.....

كانت (شمس) تشعر بالبؤس الشديد من أجلها، تحاول أن تتمالك لكن خارت قواها، فبكت بمنتهى القوة والحسرة والانهيار ، وارتمت جالسة على السرير، تبكي بشدةٍ من أعماق ها، لاعنةً غباءها، وحماقتها....

تبكي بكل انهيار بصورةٍ لم يتوقعها أو تصدقها أخواتها....

اقتربوا منها ...

حلفوها بكل عزيزٍ أن تتكلم...

لابد لها أن تزيح ما يؤرق عليها حياتها، ما ينبغي أن تحمل كل شيء وحدها وهن هنا معها، كان الألم يظهر عليها جليًّا، ومزاجها يزداد سوءًا، جلست (شمس) في وسط أخواتها تحكي، بصوتٍ خافتٍ باكٍ متخاذلٍ وخائف ، حكت كل ما حدث، كل ما شعرت به....

كيف كانت وحيدة جدًّا.....

و كيف أحبت بمنتهى القوة وبكل ضعف.....

لم يكن الكلام سهلًا ...

ولا الحديث جميلًا....

بل ظهرت الدهشة مختلطة بالألم مفعمين بغضبٍ على ما حدث معها ، حكت لهم عن طعم تلك المشاعر التي مرت بها أول مرةٍ في حياتها، عرفت ما الانجذاب وكيف يفرض الحب نفسه، كيف تشتاق، وكيف تستيقظ في منتصف الليل مبتسمة سعيدة ؛ لأن هناك من تحب في هذا الكون ...

كيف كان صوته يثلج اشتياق قلبها، وكيف رحيله خلف فيها مرارة منقطعة النظير، كيف خلف داخلها ألمًا لم تستطع التغلب عليه، كانت تائهة في بلاد الوحدة ، فرحلت باختيارها لبلاد الحنين والحزن للأبد ....

كيف أحست بعده بالمهانة والذل وقلة الحيلة ، وكيف تشعر برغمها الحنين و ترى الأيام خاويةً بدونه وأنها لا تريد سوى أن تسمع صوته.....

لم يكن سهلًا أن تتكلم ، ولكن الحديث إلى من تحب، الإزاحة عن أحمال قلبك، ونفض كل ثقيلٍ عن نفسك ، قد كان يستحق ، كان يجب لها أن تلتفت لحياتها، لعل الحديث يقويها، وفي النهاية، ذكرت لـ(هنا) الحقيقة التي وصلت إليها :

_يا حبيبتي، كان خطئي أنا أيضًا... علمت أنه لا يحبني... ورأيته لن يحبني... وظللت هناك محاولة جعل عالمه مثالي... كان يجب أن أبني لنفسي لا له..... ظللت أدور في فلكه.... ولا أهتم بمدارات حياتي... كنت أثير الشفقة لا الحب أنا أعلم.... ولكنه أيضًا أخطأ لما تزوجني إن كنت لا أرضيه.... كان فقط يبحث عن أم فضلى لأبنائه.... لكنه يحب نوعًا آخر من النساء... نوعًا لم يحاول أن يحولني إليه.... يا لاغباءه... أكان يخشى أن يلوثني؟.... أو أن يفسد نوعي؟.... ها قد أفسدني طول الجفاء والوحدة والغربة.....

احتضنتها جميلة بقوة وربتت على كتفيها وهي تبكي وقالت لها :

_يا (شمس) يكفيك جلدًا لذاتك.... كفاك تفكيرًا.... كان مجرد خطأ عزيزتي... وأخرجك الله منه على خير.... نحن لا نملك قلوبنا.... وليس لنا عليها سلطان.... إن كان الوقوع في الحب يأتينا سهوًا ودون إرادة... فإن التعافي يجب أن يكون قرارًا..... انتهى الأمر.. وبعض الأمور المؤلمة ليس لها حل سوى تجاوزها... فقط تجاوزي الأمر... واستعيني بالله لبدايةٍ جديدة.... وإن كان تغير داخلك شيء فاجعليه تغير للأفضل....

ثم رفعت ل(شمس)رأسها ومسحت لها دموعها هامسة بصوتٍ رقيق:

_أرى أن زوجك يفتقدك... يشعر بغيابك... تجاوزي الأمر معه أرجوك.... وأعطي كل طاقتك لبدايةٍ جديدة لنفسك أنت أولًا.... ثم زوجك وأولادك... أرى أن ما حدث فتح أمامك رؤيةً جديدة ونظرة أوقع وأشمل لكل أمور حياتك....

واقتربت لتنظر قريبًا جدًّا إلى عينيها مكملة حديثها بنفس الصوت ونفس الثقة:

_ هذا أنسب وقت لتبدأي من جديد.... قد يكون ما بينكما أقوى كثيرًا من ذي قبل.... ما حدث بينكما درسًا لتقوية علاقتكما.....

حاولت الأخوات تجاوز هذا الحديث المؤلم وفتحوا الحديث في أمور أخرى وبقين في غرفتهن لبعض الوقت، في جلسة حديث قلب مفتوح، لإزاحة ما يضيق بهم صدورهن ، قبل أن يخرجوا في النهاية متعجبين....

على صوت قهقهات الأم والأب.....

معلنين أن الأمور كلها على ما يرام...

وأن على كل فرد السرعة في تجهيز نفسه للزفاف السعيد .....

.....

وقفت (شمس) أمام مرآتها ترتدي ثيابها وتجهز أطفالها مسرعة، تشعر ببعض صفاء النفس وراحة البال قليلًا بعد حديثها مع أخواتها وبعد هدوء الحال بينها وبين نور، انتهت من تجهيز حالها ونزلت من بيتها، زوجها ينتظر في السيارة وهو متفائل بعد أن بدأت آثار الابتسام تشق طريقها في وجه زوجته .....

جلست إلى جوار زوجها، ثم تذكرت الرسائل التي تصل لها طوال النهار على هاتفها ولم تجد الوقت لترد عليها ، الكثير من المهنئين أرسلوا رسائل التهاني، أخرجت هاتفها تتصفح الرسائل وهي شبه مبتسمة...

قبل أن تتوقف أمام إحدى الرسائل ويصفر وجهها ويشحب وتبهت ابتسامتها، اعتلى الذهول وجهها فشاحت به في الجهة الأخرى قبل أن يراه زوجها أو يشعر بها.....

قالت في نفسها، يا إلهي، ظننته نسيني، يبدو أن الأشياء التي يطول انتظارها تأتي بعد أن نزهد فيها ونتركها ونريد نسيانها، كلمات قليلة مختصرة لا تدري ماهيتها ولا سببها..

(ألف مبروك للعروسين.... زفاف سعيد).... هذا يعني أنه مازال يتتبع أخبارها.....

هذا يومًا مختلفًا من أوله.....
رسالة منه بعد كل هذه الشهور.....
لم يكن سهلًا أبدًا ذلك الشعور ، مزيج من السعادة لأن تأتيها الفرصة لأخذ جزء من اعتبارها أمام ذاتها ، سعادة ممزوجة بالخوف والألم

والعتاب والحزن، وما هو الرد الأبلغ على هذه الكلمات المختصرة البسيطة، وجال فكرها يبحث عن سبب عودته...

(ما أعادك ؟)..

لا تعتقد أن قلبه أعاده ، فمثله لا يملك قلبًا، هذا الذي رحل دون أن ينظر خلفه ، هل يخشى أن تكون أسيرته بدأت في فك قيودها، تعتقد أنه أحب تعلقها به، ولم يحبها هي، لعله يخاف على متيمته أن تحب غيره، يسعى لأن تظل أسيرته للأبد ، هل تثور؟ تثورعلى جرأته أن عاد ثانية ، تثور وتلومه على ليالٍ قتلها فيها الحنين، ولكن كيف تلومه وقلبها خانها من قبله، حين رحل عنها إلى أرضه، حين كان هو كل ذاتها، كيف تلومه ولا تلوم حالها على هذا السقوط والخذلان والمهانة التي حصلت عليها..

أم تثور لكرامتها ، تبلغه انتصاراتها الصغيرة ، مرت بضعة أيام لم تتذكره فيها، تشعر ببعض القوة ،تشعر بأن الله قد أراد لها الخلاص والحياة النقية، هل تسأله من أنت؟....

هل تخبره أنها لم تعد تتذكر ملامحه بوضوح؟.....

كل الأشياء التي تغيرت طعمها من بعده قد اعتادها ، حتى لم تعد تعرف طعمًا سواها ، قد اعتادت طعم المرار، اعتادت الألم حتى يعجز أي شيء بعده أن يؤلمها ولا يستطيع بعده أي شعور أن يقسو عليها.....

صوته...

ضاع منها شوقها لصوته، لطالما تمنت أن يأتيها هذا الصوت عبر هاتفها، حتى الأمنيات تتغير إذا طال البعاد، لو كانت هذه الرسالة من قبل بضعة أسابيع لرددت كلمات تقطر أنينًا ووجعًا وحنين...

ولكن شكرًا للأيام الطويلة، التي تمر بشدة ألم تقتل الإحساس ، صار الغياب بالشهور ولا تبالي.....

حلم هش، أركانه وهم، فرشه سراب، رائحته كخيال الجنة، حلم هش كان منتهى قوتها و كان وجعها معه، لأن لا حياة لأملٍ هش في أرض الحياة.....
هل ترد ردًّا كمن لا يعنيها عنه شيئًا، ولكن ماذا لو راودها الحنين، وجاء الرد ردود، والعتاب شوق، هل تسمح بعودة كل ذلك من جديد ، يجلد روحاً تحررت من أسره أخيرًا، هل تبلغه في كلمات قليلة مختصرة عن مدى حقارته فالغياب جعلها ترى وجوهًا جديدة لم ترها ولم تعلمها عنه في وجوده، لكن الحقير لا يحتاج إلى رسالة ليعرف نفسه ، هو أعلم تماماً بحاله....
الفقد يعلمنا أشياءً لم نكن ندري عنها بداخلنا، أن الحياة تستمر رغم أنف الجميع فلا الشمس تتوقف ولا القمر بكى رحيلك، حتى القلب رغم انفطاره يظل يؤدي كل وظائف، زال شعور الندم على الخطأ وظهره مكانه امتنان الأخطاء التي تصنعها من جديد، لولاها ما كنت هي الآن.....
حقًّا كان هذا يومًا مختلفًا.....
لملمت كل كلماتها ورصت سطورًا طويلة في أفكارها.....

ثم....

قررت وضع السدود.....

تلك السدود التي لطالما حاوطتهم وعزلتهم بعيدًا جدًّا عن كل العالم من حولهم، آن أوان أن توضع بينهما... هذا الذي بينهم لا يطلق عليه صداقة ...

ولا يرقى للحب أبدًا...

بل عار وخزي لم تشعر مثلهما أبداً...

صمتت الحروف .....

وتجمدت الكلمات .....

أغلقت هاتفها، وأغلقت معه أصوات عقلها، ولملمت شتات ذهنها..... ومحت الرسالة....

وحجبت الرد.....

فقد كان مجرد نيزك شارد ارتطم بمدار شمس...

ما عاد كونها يتحمل شهابه.....

ما عدا يجمعهما شيء...

ولو أتيتني بالشمس في يمينه والقمر في يساره ما عادت بقلبها إليه .....

نظرت شمس لصور أبنائها المنعكسة في مرايا السيارة، حسنًا أعزائي أعدكم أن تحظوا بأمٍّ أفضل ، وخصت ابنتها الصغيرة البريئة بنظرةٍ ووعدٍ خاص بها، أنتِ عزيزتي ستكونين أفضل من الصورة الباهتة لأمك، أم أقوى وأبصر، أعدكم أن أصلح كل ما مال، وأن أجبر كل الخدوش والكسور في حياتكم، قبل أن تستفحل.

ثم أدارت نظرتها إلى زوجها، نظرة لا تخلو من لوم وعتاب تعجز عنه الحروف والكلمات، نظرة يلونها الهوان والانكسار والخذلان والخوف والغضب، ولا تخلو من بعض الوعد والأمل، ولسان حالها يقول، وأعدكم أعزائي بأن تحظوا بأبٍ أفضل.

.....

بدأت مراسم الزفاف والجميع مبتسم أو على الأقل يصطنع الابتسامة ، محاولات للتعلق بالأمل في السعادة..
(جميلة) ظلت في حالة فرارٍ مستمر من أي حديث يستغرق أكثر من ثلاث ثوان ، تحاول أن ترحم نفسها من سياط الكلمات التي تعلم أنها ستنالها في كل الأحوال، ولكن لعل عدم سماعها هو انتصار في حد ذاته....

أما (نور) فظلت تراقب من بعيد كالشبح زوجها وهو يتحرك كالمراهق ويتودد إلى جميلات الحفل ، تصرفاته تصيبها بالخزي ولا تدري كيف تستطيع الحفاظ على المتبقي من كرامتها أمام العائلة، لماذا هو بكل هذا القبح والسوء واللامبالاة، أي ذنب ارتكبته ليبتليها الله به.

الأم سعيدة مبتسمة تمشي بين الضيوف تتباهى بجمال ابنتها وباليوم الذي ظلت تنتظره، سعيدة كأنه يومها هي لا (هنا)، ولاشك أنها ظلت متحفظة على كل الأحاديث عن (جميلة) ، تلك الأحاديث عن حظها ومصمصة الشفاه كانت قيد الحذر كمحاولة لتجنب ما قد يكدر عليها صفو هذه الليلة.....
(شمس) مرهقة منهكة تشعر بأعراض انسحاب....
كالمريض.....
تحاول إلهاء قلبها برؤية أطفالها وانشغالها بملاحقتهم في هذا الزحام، تبقى جوار زوجها محاولة التمسك ببواقي ما قد يتم ترميمه للأفضل، شعرت بـ(نور) تأتي تجلس لجوارها، تعلم أنها أيضًا تعاني وتريد البقاء إلى جوارها، الجميع مخذول والجميع مازال يحاول الاستمرار بالتظاهر....
وبالبقاء بوجهٍ مبتسم.....
اقتربت (شمس) منها وقالت:
_ (هنا) رائعة في فستان زفافها....
ردت (نور) بصعوبة تحاول إيصال صوتها في هذه الضوضاء الصاخبة.....:
_نعم هي جميلة حقًّا..... ثم ظهر عليها الضيق المفاجئ وقالت:

_أريد الخروج لأحصل على بعض الهدوء قليلًا... تعال معي نستنشق بعض الهواء والهدوء بالخارج.....
خرجت الأختان إلى خارج القاعة للهدوء والهواء النقي وسواد الليل، ما إن استقرتا بمكانٍ هادئ، حتى بكت نور، فاحتضنتها أختها، وقالت:
_حسنًا.. لن أسألك ما بك... إن أردت البكاء والتخفيف من ضغط مشاعرك ابكي وأنا هنا إلى جوارك.... أتفهم شعورك تمامًا.... أو تكلمي إن شئت....

ردت(نور) من وراء دموعها:
_أكاد أختنق.... قلبي يعتصر من الألم ولا أستطيع الخلاص.....

كان صوتها يتقطع من شدة بكائها وجسدها ينتفض، احتضنتها (شمس) بقوةٍ أكثر تحاول تهدئتها:
_أنا أيضًا يعتصر قلبي يا(نور)... أتألم من نفسي... أتمنى لو أستطيع البكاء، تجمد قلبي وجف إحساسي.....

ثم رفعت عينيها تنظر إلى الفراغ، تنظر إلى لا شيء في سواد الليل العميق الذي ينعقد داخل عقلها وأكملت كلامها كمن يحدث نفسه، بصوتٍ خافتٍ هامدٍ هامس:
_ كنت بحاجةٍ فقط لبعض التواصل... التواصل احتياج أساسي لأي إنسان.... كنت ببساطة أحتاج أن أشعر أني مرئية ومسموعة... أني موجودة ولي قيمة... لم أكن بخير.... لم أكن موجودة... لم يكن لي قيمة.... واعتقدت أنه النجاة...اعتقدت أنها علاقة محصنة من الطعن والنقد والأحكام و اللوم والتأنيب والشعور بالذنب.... مد لي يدًا كمن

ينقذني... ظننته منقذي... فاحتلني ومكث داخلي... واستنفد مشاعري واستهلكني.... وأنا سمحت له لأني ببساطة لم أكن أرى غيره في الحياة... لم أكن بخير لأميز أنه جانيًا وليس منقذ... لم أكن بخير فاعتمدت على وجوده كليًّا... حتى كان مع انسحابه انهياري التام وانهيار عالمي كله, فقط سقطت دون أن أشعر في دائرةٍ من الفراغ تزداد اتساعًا وعمقًا وضيقًا للأنفاس...

ردت عليها (نور) بصوتٍ يختنق ويخرج من أعماقها:

_لماذا نحن؟.... أم أن هذا أصبح حال الحياة في هذا الزمن...هل الجميع أصبح يتألم يا (شمس) ؟.....

أكملت (شمس) نفس حديثها كأنها لا تسمع (نور) ولا تشعر بوجودها، كانت هناك تتحدث من عالمٍ آخر بصوتٍ يملؤه القهر والمرارة:

_أردت الحب... أردت فقط الدعم والمساعدة من شخصٍ يزيح عني الخوف والارتياب والهلع الذي أشعره مع الآخرين.... يقتحمني ويغزوني وينتشلني من الانعزال والوحدة... التي لم ألجأ إليها بكامل إرادتي بل لأني مغلوبة من كل من يحيط بي.... كنت مسلمة الحصون.... أنتظر فارسًا على جوادٍ أبيض... كنت منهكة القلب.... أريد التواصل نفسيًّا وجسديًّا وروحيًّا.... أردت الشعور القوي بالعشق..... كان سقوطي إلى الخيانة الفعلية وشيكًا جدًّا....وشيكًا جدًّا... جدًّا ....أردت فقط الحب ولكني لم أجده....كان غير حقيقي... لم يصل بي إلى إشباع هذه الأمنية الداخلية لدي بأن أكون مسموعة ومرئية... فقد كنت هناك مازلت غير موجودة... بلا قيمة حقيقية.... مجرد وهم... كنت أتواصل مع الشيطان نفسه.... الشيطان نفسه يا (نور).....

قالت (نور) وهي تكفكف دمعها ، قالت من خلال صوتٍ خنقته الدموع والآهات والحسرة:

_أعتقد يا (شمس) أننا جميعًا ندور في مدارات حول حياتنا... تشبه مدارات الشمس .... نحن نغيب ونشرق ثم نعود، نغيب ونشرق طوال حياتنا.... حتى المغيب الأخير إلى أجلنا... اعتقدت أننا مررنا بغروبٍ طويلٍ وقد اقترب الإشراق من حياتنا..... قد نشرق أخيرًا يا (شمس .....)

ظلت الأختان يحتضنان بعضهما في صمت، لم يعد هناك المزيد لقوله أو التحدث عنه ، فقط ما تحتاجه الأختان مزيدًا من الدعم والإحساس ببعضهما ، وتحتاجان مزيدًا من التواصل، مع طرفٍ يفهم معاناتك فلا يلومك ولا يحملك ويحمل عليك المزيد....
يحتاجان للتخلي عن آلام قلبهما إلى قلب سواد الليل المنعقد أمام أعينهم ، كانا يحتاجان للتخلي عن أوهامهما الافتراضية، والتحلي بالقوة والشجاعة الكافية للنظر حولهما وتقبل ما حولهما دون أحكام، دون جلدٍ للذات....
بحاجةٍ لأن يتعاطفوا ويتقبلوا ويتواصلوا مع الحياة.....
يتقبلوا ذلك الصراع الأبدي في قلوبهم....
صراع عليهما أن ينجوا منه.....
لابد لنا جميعًا أن ننجو منه ونتعلم....
كيف نحب ...
كيف نكره...
كيف نخاف .....
كيف نحتاج ....
.كيف نشتاق.....
وكيف نتألم .....
وكيف نرقص على حبال كل مشاعرنا دون أن نسقط أو نخرج من

إطار الواجب والملائم، المناسب والمفروض وكيف نخوض كل هذه المعركة منتصرين دون كسرٍ أو خدشٍ أو جبيرة.....
.....

في هذا الحين كان الأب ينظر إلى ابنته (هنا)، يتطلع بمزيج من الحزن لفراقها والأمل بأن تحظى بحياةٍ سعيدة، لا أحد يفهم مثله كم من الصعب أن ترعى بنات في هذا المجتمع، أن تحميهم وتمنحهم

بعض السعادة، بذل أقصى جهده ليراهم يحظين ببعض السعادة ، ولكنه يرى عيونهن تنطق بكل المشاعر إلا السعادة....
يرى الخوف محكومًا بإتقان كما كانت جدائل شعورهم محكومة بالصغير، يرى الألم والحزن والانكسار يعلن عن رائحته كما كانت تعلن ابتساماتهن عن سعادتهن، يرى فقدان الأمل كما كان يرى فساتينهن المزركشة، يرى الهوان والغضب والثورة....
يرى مشاعر كثيرة تتغير وتتقلب مع الأيام.....
وفي داخله يقول :
(حبيباتي، أدعو الله لكن بأن تبتسم لكُن الحياة، ولكنها الحياة، هي هذه الحياة ،هل نسيت أن أخبركن خلال انشغالي بالحياة ما هي هذه الحياة؟!!
هل نسيت أن أخبركن أنها ساحة معركة ليس بالأرض فقط ، بل بالجسد والروح معركة خاصة ضد نفسك أولا، قبل الآخرين ، والنفس لها أحكام لا ندري أسبابها، تجعلنا نعجز أحيانًا عن تفسير أنفسنا ، تجعلنا نتخبط كثيرًا ونتألم كثيرًا.....
هل هذا خطئي.... أغلقت عليكن فأصبحت قلوبكن هشة لا تتحمل تعسرات الحياة؟! كنت أخشى عليكن، أعتقدت أن الجهل ببعض الأمور في هذه الحياة نعمة، الجهل بمذاق بعض الأفكار والمشاعر نعمة، فأنت لا تفتقد ما لا تعلمه، ولن تحن وتئن لمشاعر لم تتذوقها.....
كطعم الحب والاشتياق والحنين والغربة، خشيت عليكن من سهام القدر المرصودة..
كنت فقط أحاول حمايتكن ، أم أني لم أحميكن كفاية ، فصرتن وحيدات في هذا المجتمع الذي يصب معايير قاسية على فتياته ، حاولت السير على هذا الحبل الرفيع ما بين حمايتكن وإغلاق كل

الأبواب عليكن، وما بين التربية التي تجعل منكن قويات قادرات على مواجهة أوجاع هذا العالم، كيف أظل ممسك بكن فوق هذا الحبل دون أن نسقط....
أو نخسر.....
كيف نسيت أن أخبركن أن النجاح بالحياة مختلف عن النجاح بالجامعة ؟! ليس له دائمًا شهادة أو تقدير، ذلك الذي أفنيت وقتي ووقتكن في الحصول عليه لا أعلم كم من الوقت تأخرت ولم أخبركن ذلك ، النجاح هو الانتصار في معركة الحياة هذه بأقل خسائر في النفس وأقل خدوشٍ في جدار القلب وأقل جروحٍ وزوابع وعصيان من النفس،
الحياة .....
معركة تحتاج قوة، دون أن نندم على بعض الخسائر، من المشاعر والكآبة والحزن، هذا فقط لتهذيبنا وليس تعذبينا ، الحياة عسيرة جدًّا فاصبرن وصابرن....
أن الله مع الصابرين ..)

.....
أخيرًا انتهت مراسم حفلة الزفاف ، ومع انتهائها شعر الجميع بالراحة أن هذا اليوم قد انتهى أخيرًا ، فقد شعروا أنه لن يمر أبدًا ، أوصلوا عروسهم الجميلة إلى بيت الزوجية متمنين لها مزيدًا من السعادة والهنا والوفاق مع زوجها، ودعوها بالفرح والحب والدموع والأسى لفراقها....

.....

في صباح اليوم التالي استيقظت (نور) من نومها تسحب قدميها وشعرت أنه يوم مظلم آخر مثل ما سبقه!..

بكل ملل رتبت مفرش سريرها أو بالأحرى شدته فقط وبدأت تستعيد شريط ذكرياته ، كل ما يكدر أيامها ويجعلها تكره بداية كل يومٍ جديد يجعلها تقاوم السرير للنهوض بلا أمل ، زوجها ينتقدها دائمًا ، لا أطفال لديها ، جسدها أصبح سمينًا ووجهها يعتليه الإجهاد.....

متى أصبح هذا شكلها، وأين توجد هي من هذه الصورة؟ شعرها الأسود الجميل ، مرهق يتساقط مع سقوطها، جسمها مُرهَق ، الكثير حولها يحتاج ترتيب وتعديل ، بل حياتها كلها بحاجةٍ لهذا التنظيف والترتيب والتعديل...!!!
نظرت لوجهها بالمرآة ثم ضحكت بقوة، ضحكة أقرب إلى الثمالة ، وظلت تضحك بقوةٍ وهي تنظر لهذا الكائن الميؤوس منه في هذه المرآة ، حتى كادت تسقط أرضًا.
تضحك وتسأل نفسها:

من أنا؟....

وما دوري في هذه الحياة...

لِمَ أعذب نفسي؟!!..

أرهق نفسي بحياةٍ لا أنتمي إليها، تبًّا لك يا نور ، انقذي نفسك ، لم يعد لك غيرها، يا غبية استفيقي ، أيامك معدودة ، وما يمر لن يعود يومًا...

تنفست بعمقٍ عددًا من المرات هواءً عميقًا، أخذت فوطتها وأسرعت للاستحمام، كمن يريد أن يتطهر من ذنبه، اغتسلت وخرجت لتصلي وتدعو الله، لتستخيره..

ووقفت مرةً أخرى أمام المرآة، ولكن هذه المرة لترتب زينتها،

ارتدت أجمل ثيابها، صففت شعرها بطريقةٍ رائعة، وضعت عطرها الفخم...

اكتشفت أنها مجنونة؛ لماذا احتفظت بهذا العطر المنعش فقط للمناسبات؟!! ..

أية مناسبات كانت تنتظر، قررت في ذاتها أن تختلف اليوم عما سبق...

.. ... .

أعدت طعامًا لذيذًا متنوعًا وشهيًّا كمن يتحرك لوليمةٍ كبيرة ، وضعت الزهور والشموع والكاسات، أرادت أن يكون المشهد مثاليًّا ، ليومٍ مميز ، نظرت حولها تشعر بالرضا ، جلست تنتظر على كرسي المائدة المقابل للباب لتكون أول ما يقع عليه عيناه عند فتح الباب....

.....

أدار زوجها مفتاحه وفتح الباب ثم وقف منبهرًا بالمنظر و بزوجته وما أعدته له ....

وقال بكامل استغرابه مبتسمًا ابتسامةً عريضة، شاعرًا بزهوة النصر الرجولي داخله :

_ عزيزتي، ما كل هذا؟!... أنت لم تقومي بهذا منذ أيام زواجنا الأولى....

ثم غمز لها بعينه واستطرد قائلًا:

_يبدو أن زفاف (هنا) قد أثر عليك كثيراً .....

ردت(نور) ، بكل برود:

_أحببت أن يكون مشهد النهاية مثاليًّا، فيبقى عالقًا في ذاكرتك.. وأنا أنال حريتي... وأن أهرب من جحيمك،

قالتها مبتسمة سعيدة منتصرة... فسقطت عليه ثقيلة كالحجر:

_.....(طلقني).....

.....

"

.....

جميلة...

قررت أن تتحرر وتثور على قيودٍ مجتمعية عقيمة، وكانت البداية من داخلها يجب أن تتحرر أولًا من الداخل، من خوفها ومن الأفكار التي فُرضت عليها وعلى لقب عانس الذي يوصمها بالعار....

الحرية ، لن تجدها في الخارج ، الحرية في داخلها، في أفكارها، في مشاعرها، في أحلامها ،في كل إحساسٍ جديدٍ اجتاح أعماقها ولن يتكرر أبدًا.....
إن أقصى ما يقيد حياتنا، ليس القانون والمجتمع والناس، إنه القلق والخوف ، الرهبة من أنفسنا ومن المجهول ، استمرارنا في التأثر بكل ما حولنا ويرفضه المنطق ....

من أسوأ قيودنا كبشر الخوف الدائم ، و المستمر ، لذلك كان قرار سفرها وحيدة للعمل في فرع شركتها بالخارج هو التحدي الذي أصرت على الصمود أمامه، هو كسر لقيود خوفها وعجزها، لم يكن هروبًا ، لم يكن استسلامًا ، بل سمو بالنفس من هذا المجتمع .....

.....

في يوم سفرها...

وقفت (شمس) في وداعها بالمطار، هي لا تحب لحظات الوداع والفراق ولاتدري كيف تتحمل فراقها ولكنها كانت أكثر من أيدها وشجعها على التجربة ، أمسكت بيدها وشدت عليها ونظرت إليها بأملٍ قائلة:
_أنا فخورة بك جدًّا.. أتمنى أن أرى ابنتي مثلك يومًا ما.
نظرت لها (جميلة) وعينيها تترقرق دموعًا وخوفًا، وقالت :

_ هل تحبي أن تسافر ابنتك وحيدة يا شمس.... أشعر نوعًا ما بالرهبة
اقتربت منها (شمس) أكثر وهي تطمئنها ، وقالت لها :
_أنت قوية... اجتزت كل التجارب والحواجز وحدك... أنت لست بحاجةٍ لأحد ليكون جوارك.... أنا فعلًا سأربيها لتكون مثلك لن أجعلها تعيش وأول طموحاتها الزواج.... سيكون الرجل جزء من حياتها.. وليس الأولوية.... هل تعلمين أني ألحقتها بأحد صفوف الرسم.... هي تهواه.... أحلم بأن تكون فنانة مشهورة... تدور العالم وتعيش تلك الحياة التي لم أكن بالشجاعة الكافية لأحياها .
شدت (جميلة) على يدها وقالت
_حياتك جميلة يا (شمس)... لا تنسي أنه لولا زواجك ما حظيت بهؤلاء الأطفال.. لا أحد يحصل على كل شيء.. هناك دائمًا ضريبة تُدفع.. هناك دائمًا لدى كل إنسان جزء مفقود..... ألا تعتقدي أني أود أن أكون أمًّا مثلك.... لأحظى بالحياة التي لم أحظ بها أنا أيضًا....
ردت عليها (شمس) قائلة
_ يا جميلة... نتزوج على أمل الحب... ثم لا نجده وقد لا نجد أيضًا الأبناء...ها هي (نور) خرجت من تجربتها بلا أطفال وبلا حب.....

قالت لها (جميلة)
- (نور) قد أنقذها الله من هذا الزواج... والحمد لله بلا أطفال مشتتين بين أبوين لا يجمعهما حب ولا احترام.... ما زالت الصورة قاتمة في عينيك حبيبتي.... (شمس) الرقيقة تغيرت ...أنت مازالت فرصتك في الحب قائمة.... جددي رفات قلبك.

شعرت (شمس) بألمٍ قوي ينغص قلبها في هذه اللحظة، ربتت على كتف أختها، وقالت وهي تنظر بعيدًا:

_ للأسف يا جميلة، لم يعد قلبي يقوى على الحب أو على حمل أي مشاعر ولا أنفك أفكر في أنه هو من أضاع فرصتي لحبه.... قلبي قد مات يا (جميلة)... لا أقوى على إنعاشه مهما حاولت... أنا أعيش من أجله ومن أجل أولاده.... لكن... للأسف ما عاد لدي رصيد للحب.... نفد كله.... أنا راضية عن الحياة معه لكني لم أعد أحبه.....

هزت (جميلة) رأسها متأففة ومستنكرة قولها:

_ إياك أن تكوني مازلت تتألمي مما حدث أو تفكري في ذلك الرجل ....

ابتسمت (شمس) بسخريةٍ وهي تنظر إليها، وتعض على شفتيها:

_ أنت لم تفهمي... لقد مات قلبي بكل مشاعره والله ما عاد أي شيء يؤلمني.... بل لا أكاد أشعر أساسًا....

قالتها وهي تضحك أو تحاول أن تكون كدعابة، ثم صمتت فجأة ، وطأطأت برأسها وقالت :

_لكني لا أنساه أبدًا يا جميلة... تمنيت وحاولت.... لكني أذكره أحيانًا وأذكر كم كان فارغ المشاعر.... لم يكن يملك ما اعتقدته قد يعطيني إياه.... بل كان خائنًا آخر لكنني لم أكن متاحة لما يتمنى.... لم أره بهذه الصورة لأني نظرت له من الجهة الأخرى... الجهة الخطأ... قد أذيت نفسي كثيرًا بفرط مشاعري.

احتضنت (جميلة) يديها وهزتها، وقالت بثقةٍ وهي تضيق عينيها وتقول :

_ كفاك جلدًا للذات.... الحمد لله أنك كنت واعية للحفاظ على حياتك .

قالت (شمس)

_ لم أكن واعية نهائيًّا يا جميلة... لم أحافظ أو أنقذ نفسي.... بل أنقذني الله من السقوط رغم أنفي.... الحمد لله.

احتضنت (جميلة) أختها، احتضانًا قويًّا لمودع وهمست في أذنيها قائلة:

_حبيبتي انتهى الأمر... كوني قوية واصمدي من أجلي؛ لا أريد السفر وأنا قلقة عليك.....

كان الوقت قد أزف ويجب عليها الذهاب، أمسكت يد أختها وهي تبتعد وينحل بينهما تشابك الأيد وقالت لها:

_شمس.... أنا لم أنجح في عملي باختياري.... لم يكن لدي اختيار آخر.... لم تكن لدي حياة أخرى لأعيشها....

.....

رحلت جميلة، وهي تردد بينها وبين نفسها أن ميزة عدم زواجها أنها ليست مضطرة أن تكون أمًّا لبنات، فهاهي قلبها انخلع بسبب أخواتها، ولا تستطيع تحمل المزيد، لا تدري كيف تتحمل بعادهم واشتياقها لهم وخوفها عليهم، لكنها أيضًا تعلم أنها لا تستطيع البقاء في هذا المجتمع أكثر من هذا.....

.....

(هنا) ...

حاولت تطبيق نصائح أخواتها....

حاولت أن تمشي على ذلك الخيط الرفيع الذي يفصل ما بين الافتراق والاختناق في حياة زوجها، ولكن لا أحد يستطيع أن يمشي متزنًا ممسكًا بعصا الموازين منضبطة طول الوقت ...

كانت معظم الأوقات والمواقف تتصرف بفطرتها دون التعمق كثيرًا، كانت تتحرك بتلقائية، تلقائية غلفت تصرفاتها بالمودة والرحمة، بلا معايير كثيرة وخرائط معقدة ....

أمسكت ألبوم الصور، تنظر إلى صور زفافها وصور زفاف أخواتها، كانت البداية كلها بابتسامة الفرح، كل عروس مهما كانت نهاية زواجها كانت تبدأ بابتسامةٍ وفرحةٍ وأمل...

لم الجميع لا ينتهوا نهايات سعيدة؟ ....

حسن النوايا فقط لا يضمن النجاح، البذل والعطاء والتضحية وحدهم لن يكفوا، إن كنت لا تعطي ما يحتاجه آخر، أو إن كنت لا تعلم ما يحتاجه، الحب والعاطفة وحدهما لن يضمنا السعادة والتفاهم فلابد من الفطنة والكياسة والذكاء العاطفي..

أقصر الطرق أن تعرف ما يتوقعه منك الآخر فلا تهدر محاولاتك في غير مكانها، بل خارج إطارها، فكلٌ يحتاج إلى شيء خاص به ليزهر، ولن يزهر بغيره مهما أعطيت أو بذلت أو ضحيت.....

كانت تنظر إلى بداية حياة ناجحة، ليس لها كل الفضل في هذا النجاح، لأن الزواج الصحيح بحاجة إلى رجلًا حقيقي وليس مظاهر رجل بلا مراعاة للرجولة،...

لابد أن تقترب مسافة معينة قبل أن تكتشف الإنسان ما بداخله، وتعلم مزايا ومشاعر لم تظهر من قبل، لذلك هي أمور لا تكون واضحة حتى يغلق عليكما باب واحد، وقد كان شعورها برجولته يملؤها كلما كانت بقربه، كلما لمسها، كلما سندها، كلما احتاجته، لم تكن تعلم أنه يملك كل هذا العطاء من قبل .....

علمها معنى جديدًا للحب، جهلت وجوده، ومعنى جديدًا للحياة ظنت أن لا علاقة له بالواقع....

وأكد لها أن كل مخاوفها خيال.....

.....

.....

بقت (نور) في الأيام التالية لطلاقها تؤنسها أفكار لم تكن تراها أو تعلمها قبلًا، الحياة تمر ، ولكن كيف نعيشها، تمر بنا الأيام والسنون، يمر العمر، نجدد كل شيء داخل حياتنا ، نجدد ما نملك له سبيل، نشتري جديد ونرمي القديم ، لكننا ننسي، ننسي أن نرمي مشاعرنا السلبية الموجة، خذلاننا، إحباطاتنا، ولحظات اليأس التي تتكون وتتعفن على جدران الذاكرة، فتعتم رؤيانا ومزاجنا وأيامنا ، نرمم شروخ جدران البيوت ونفتقد ترميم شروخ أرواحنا، تلك التي مرت عليها السنون، كانت قاسية موجعة أحيانًا فتركت آثارها القاسية

القوية، المؤلمة ، نستعين بمن ينظف أماكننا، وننسى الاستعانة بمن ينظف عميق نفوسنا وسراديبها ، كهوفها وخفاياها ، لا نستعين بالله، وتمر اللحظات الكثيرة دون أن نسعى لدق بابه ، ننسى وجوده ، ننسى اللجوء إليه.....

هذا هو الشعور الذي أغرقها في خمرته، مرت بأزمةٍ نفسيةٍ موجعة لا تدري أكان السبب هو حمل لقب مطلقة أم أن الحنين ما زال يثقل قلبها؟ ...

تألمت فلم يحاول أن يتصل بها (أحمد) بعد طلاقها ، قد يكون نسيها أو يعيش بسعادةٍ مع زوجته ولا يدري ولا يحاول أن يعرف عنها شيئًا، قال لها البعض أنت فتاة قوية متميزة وستتجاوزين ذلك ،لكن ما فائدة أن تكون قوية مميزة ، ولكن وحدها تواجه تآمر العالم ضدها؛ أصبح كل ما حولها لا يذكرها سوى به، حملت حقيبتها وقررت السفر، كان هروبًا إلى عقد عملٍ جهزته لها أختها، لا يواسيها في رحلتها سوى النظر من نافذة الطائرة، ورواية تحملها في يدها ولا تقرأها، حين تسلل إليها النوم ناعمًا سريعًا لعينين أرقهما الحنين وأجهدتهما الدموع لليالٍ عديدة....
فتحت عينيها، ثم المفاجأة أنه هنا أمامها تمامًا، إنه (أحمد) ، انتفضت وأسرعت تقول له :

(منذ أن عرفتك تعلمت أن أعيد النظر في كل ما حولي... كل المسلمات داخلي انهارت واحدًا تلو الآخر)...
أمسك يدها ولم يتحدث، فقط نظر إلى عينيها كمن يرجو الغفران والسماح ،و الكلمات تنساب من بين شفتيها دون إرادة:

(لماذا تتركني هنا بهذا الثقل الذي لا أعرف له سببًا وحدي ؟.....
مازال طعم ضحكاتنا حية؛ وكلامنا الذي لا ينقطع.... وصوتك يسري في دمى وعروقي.. ألا تعلم أن روحي تكاد تنسحب مني)
مازال مصرًّا على الصمت يتطلع إليها بنفس النظرة وهي تتحدث :
(أشتاق إليك ولا ألقاك فكيف ألملم شوقي من بين أضلعي.... كيف كلما قررت البعد أدنو... طاقة فيك تأسرني وحضورك يحتويني.... أدنو منك فتهرب إلى صمتك ...وصمتك هذا جريمة ...ذنب لا يغتفر...أنت تقتلني بصمتك)
لكنه لا يجيب إلا صمتًا وهي مازلت تتحدث :

(يا عزيزي كلما قاومت وقررت اعتزال غرامي فيك أجدني أبحر فيك من جديد.... كلما أعلنت أني برأت أشتاق إدماني لروحك... كلما قررت الضغط على زر النسيان لا أجده.... ليتني أجد دواءً يمحي كل ذاكرتي عنك)...
هزة قوية، ألقت بها في المسافة ما بين الحقيقة وأضغاث الأحلام ،فتحت عينيها تعاني من دوار وآثار دموع وزغللة، تستفيق وتميز الحقيقة كاملة، قرر التراجع وترك قطار حياتها يمضي دونه ، قد صارت له حياة لا يجب أن يفسدها ولا يجب أن تفسدها هي ،لكن لماذا ما زالت تشعر أن أضغاث أحلامها معه هي الحقيقة وأن ما سواها من كل ما يطوقها هو عين الزيف.....
هربت من تآمر العالم، فتآمرت أحلامها عليها، اكتشفت أن المؤامرة الكبرى داخلها، وأنها ستصل إلى محطتها وحيدة بدونه في كل الأحوال، إن كانت المؤامرة مصدرها قلبها فعليها أن تربط على قلبها بحزم، أن تكف عن دعوة أن (عسى الله أن يبعثه لها من جديد) بل

تدعو (عسى الله أن ينتزعه من قلبها انتزاعًا ويصلح أحواله وبيته) ويجعل هذه الخطوة بداية جديدة أفضل لها... ويسامحها ....

.....

وأشهدك أني أحبك.....
وما أحببت في الكون غيرك .....
ولكن قلبي ....
ما عاد يملؤه الحنين .....
وقد اكتفى من رحيلك أنين.....
وإن يذكرك في بعض حين ....
أو يذكرك طول السنين.....
فذلك.....

لأني أحبك.....
وما أحببت في الكون غيرك .....
لكني ....
ما عدت أتحمل منك وجع ....
وبحثت فيك فلا متسع.....
وحدي ليالٍ يقتلني الهلع....
ولكن لتعلم.....
إني أحبك.....
ولن أحب في الكون غيرك ....
رغمًا عني ...
.كان قلبي فيك عنيدًا....
ولم يرحب بوجودك بعيدًا .....
وضاق مني .....
ورحل عني .....
.....وما عاد سعيدًا.....
لكني وعدته.....
أن كل يوم في بعادك عيدًا.....
حتى طوعته.....
حتى سجنته.....
فصار نهر حبك جليدًا

.....

.....

"بمرور الأيام ستتعلم أن تتجاوز"

بعض الألم قد ينخر في جدار القلب حتى تعتقد أنك لن تستفيق منه أبدًا ، تغرق في المرارة والهم والاكتئاب، وتركض الشمس للمغيب، ثم بين وهلة ولحظة يتجاوز الله بك ذلك الشعور، فتمر بجانب جراحك المفتوحة ولا تتألم...
في الشهور التي تلت زفاف (هنا) حاولت (شمس) فتح باب قلبها وإحياء مشاعرها مرة أخرى لتنعم بالهدوء مع زوجها، كانت تنظر

لنفسها وتتعجب ، كيف تمر عليك لحظات تجعلك تعيد ترتيب كل حياتك، سبحان من هداها، سبحان من جعل الأيام تعلمها التجاوز عن أحزانها ، تتذكره لحظات تمر في مخيلتها كطيف ، كيف أربك النبض داخلها يوماً، كيف ظنت أن لن تستفيق من خمرة هذا الشعور، لكن تفاجأت أن الأمور تتغير وأن زوجها يتغير، وكأن الرجل لا يستطيع اكتشاف امرأة تحبه ، بل فقط يرى ضعفها ، كأنه اكتشف أنوثتها وهي عاشقة لغيره، فاجأها بدعمه الكامل لمشروعها الصغير لصناعة الحلى، ساعدها لإيجاد مكان وتجهيزه، وهو يخبرها دائمًا كم هو فخور بها.....

وهكذا أحيانًا تسير العلاقات بين البشر، لا أحد يفتقد ما يملك، بل إن النفس تزيد شغفًا عند ضياع ما ضمنت وجوده ، تشعر بالفراغ المتروك وراءه ،تندم عليه وتسعى لاستعادته.....

وتغيرت أيضًا (شمس)، كأنها أصبحت كائنًا آخر، حقيقة أن بعض التجارب المؤلمة لابد أن نخوضها كاملة ، لنملك قدرة التحليق، وبعض السقوط هو دافع أقوى للارتفاع عاليًا ، لابد من وجود الألم حتى ننضج، حتى نفهم ، حتى نفتح عقولنا، وقلوبنا، تغيرت كذلك نظرتها لزوجها، حل التفاهم مكان اللوم، والتجاوز مكان العتاب فسبحان الذي يجعل الآلام صفحات مطوية على رفوف الذاكرة، سبحان من يعوضنا جميلًا عن ما تركناه خلفنا رغمًا عنا ، كان هذا شعور (شمس) في الصباح ، عندما فتحت عيناها لقبلة على جبينها، وغلب شعور الرضا عندها على شعور الدهشة ، كانت أول مرة يفعلها زوجها منذ أن تزوجا .....

فتحت عينيها لتجد الفطور في صينية محضر لها جوار السرير، كما تراه في الأفلام وهو يقول :
_افتحي عينيك يا كسولة....
قالها وهو قريب منها يبتسم لها، وهى تفتح عينيها الناعستين، الشعور ببعض السعادة أخيرًا بعد شهور اللوعة تلك، وظلمة غروبها بعيدًا ، كأن فرمانًا صدر بأن تتذوق بعض السعادة امتنانًا على وجودها ودفئها وضيها لحياة أسرتها، أمل بصفحةٍ جديدة من الهدوء في حياتها .....
ابتسمت إليه بدورها، ترى في عينيه الرضا وتشعر بندمه، فقد كانت أحد ضحايا هذه اللوعة منذ أيامٍ قليلة ، عاد وقال:
_افتحي عينيك يا جنتي على هذه الأرض.... يا حياتي....
نظرت إليه متأملة وجهه، وهي تشعر أنها وصلت لمرحلة السلام الداخلي، تلك المرحلة التي ينظر فيها الإنسان إلى الحياة من منظورٍ جديد يجعله يعلم كيف يعيش، كيف يقف دون التوغل عميقًا في الحياة بمشاكلها وإحباطاتها الكثيرة الوقتية والكلية، بل تجعلك تقف وتنظر للعالم من بعيد نظرة أشمل وأوسع، فما تراه من هناك يبدو أوضح ....
تغيرت أفكارها كثيرًا، لم تعد تهتم كثيرًا بآراء من حولها أو تتأثر بأفكارهم ،أصبحت لها ثوابتها الخاصة، لها ما تحبه هي أولًا.

.....

أصبحت (شمس) تهتم (بشمس) وإن واجهتها مصاعب الحياة تبتسم، فقد مر عليها ما اعتقدته أصعب شعور في الحياة، وأبعد تجربة عن خيالها، فأصبح لا يوجعها شيء أو تتألم كثيرًا لأي شيء، مازالت تمر

الحياة وتخسر أحيانًا، لكنها تذكر أنها خسرت ما اعتقدت أنه أغلى جزء من كيانها، خسرت نفسها وقتًا طويلًا، ومن بعده أي خسارة لا تعتبر خسارة....

عادت تبتسم وتقول له في تكاسل وهي تخلل أصابعها داخل خصلات شعرها :
-لم كل هذا الحب؟
فقال :
_مممممم..... معك حق.... لم يحب إنسان حياته؟....وجنته؟ سؤال صعب جدًّا .....
ضحكت (شمس) من قلبها ضحكة واسعة وضحك هو معها، كيف ظنت أنها لن تقوى على الحياة والضحك من جديد، حتى أنها ظنت أن الكون حولها يتوقف وأن اللحظات تتلاشى ، وأن الشمس لن تشرق ثانيةً ، أن السماء تمطر دموعًا، وأن كل ما حولها بلا طعم ولا لون ولا إحساس، ظنت أنها تموت موتًا بطيئًا ، لم تتحمل أبدًا ثقل المشاعر والمهانة التي خُلفت داخلها ، وظلت تتعلق بأملٍ كاذب أنه الحب، وبحثت عنه في كل الوجوه المارة، بحثت في كل يومٍ مر عليها، في كل اتجاه ذهبت له عيناها، وانتظرته وتوقعت، انتظرته حتى مل منها الملل، ثم عثرت عن ما كان بعيدًا جدًّا عن فكرها، وجدت.....
وجدت (نفسها) .....

تلك التي لم تتعرف عليها من قبل ولم تدركها طوال عمرها، لولا غياب كل ما أرادت عنها لما صادفت هذه المدعوة (نفسها) ، نظرت إليه بعيونها الناعسة و قالت :

_-لا تسخر مني....
فقال لها :
_انا لا أسخر.... فقط أساعدك في حل اللغز.... الذي قد يحتاج إلى .....
ثم هجم عليها يدغدغها ....
وأكمل ....
_فك تشفير ...
قفزت وهي تصرخ من الضحك .....

_لألألألألأ.....أرجوك اتركني.....
ضحكت حتى كادت تفقد أنفاسها، ودارت تحاول الهرب من فوق سريرها، لكنه أمسكها سريعاً وقال :
_لا لن أتركك..... لن أتركك أبدًا طيلة عمري.....
كانت هذه آخر كلمة قيلت في الغرفة....
قبل أن تُسدل عليهما ستائر الهوى....
وفهمت شمس ...

أن مرورًا مؤلمًا لعابر سبيل في رحلة حياتها، قد كشف داخلها جديدًا لم تعرفه هي عن ذاتها، تتساءل أحيانًا ،هل كان جانبًا أسود، أم جانبًا مضيئًا ، لكنه كان جانبًا مجهولًا يشبه اكتشاف أرضٍ جديدة ، كان لابد من معركةٍ قوية لاقتحامه ، وقد كشفت معركة (شمس) عن الأمل والتعلق بالله ، وحسن الظن بالله ، فالذي سترها لن يخذلها أبدًا ، كل

المعارك لها انتصاراتها وإن بدت كخسارة ، فقد كان انسحابه من حياة (شمس) في الوقت المناسب هو الانتصار ذاته ، انتصرت (شمس) وعادت....

عادت (شمس) إلى مدارها .....

عادت إلى مدار حياتها ...

.....

من أنت أيها الآتي....
أقيس أنت لي ليلى.....أم تغرقني أوهامي.....
أتحمل لي أنا توبة..... أم ذنبًا ...بأثامى .....
أتأت لي بمتسعٍ.... أم ضيقٍ وآلامِ.....

.

.

من أنت أيها الآتي.....
سرقت صحوي ومنامي.....
بعينيك أرى عمرًا.....ضاع مني وأمامي.....
بعينيك أرى وعدًا ..... يحقق أقصى أحلامي....

.

.

أنتظر وأنتظر.....
أن تأتيني أو آتي.....

.....

في كثير من الأحيان خسارة معارك صغيرة تعلمك كيف تربح حرب الحياة

تمت

هند مصطفى

مَدارِ شَمَس

أرادت فقط الحب .. أرادت الدعم والمساعدة من شخص يزيح عنها الخوف والارتياب والهلع الذي تشعره مع الآخرين يقتحمها ويغزوها وينتشلها من الانعزال والوحدة ..
كانت مسلمة الحصون .. تنتظر فارسا على جواد أبيض كانت منهكة القلب .. تريد التواصل .. فقط التواصل أمنية داخلية بأن تكون مسموعة ومرئية وكان سبيلها الوحيد .. التخلي عن مدارها.

د . هند مصطفى

مواليد محافظة الدقهلية .. تخرجت من كلية الصيدلة جامعة المنصورة حاصلة على ماجستير الصيدلة الاكلينيكية.. واشنطن.. الولايات المتحدة الامريكية لها العديد من المقالات في مواقع التواصل الاجتماعي وبعض الصحف الالكترونية

لمحة للنشر والتوزيع